خصائص العمارة التقليدية الحجازية

أنماط البيوت الحجازية

يتنوع البيت التقليدي في الحجاز من بيت بفناء واسع مفتوح محاط بالغرف (غالباً ما يوجد في المدينة المنورة) إلى بيت بفناء خارجي (في مكة المكرمة) وبيت بدون فناء (في مدينة جدة). وهذه التغييرات تعزى أساساً إلى مجموعة من الأسباب منها توافر أراضي البناء، وطبوغرافية الأرض، والمناخ، والظروف الاجتماعية والاقتصادية المقرونة بالمتطلبات الدينية والعادات الاجتماعية والحاجات الشخصية. ويعزى التشابه المعماري في

تأثير المعمار العثماني المصري في بعض المباني الحجازية (منزل الكعكي بالطائف)

المنطقة الغربية إلى انتشار التأثير العثماني (التركي) المصري مما أدى إلى تشابه الأشكال وتشابه تنظيم الفراغات.

يحتوي الطابق الأرضي في البيت الحجازي غالباً على مدخل ودِهْليز ودرج ومقعد ذي روشَان لاستقبال الضيوف والنوم والجلوس، ومخزن ومرحاض بالقرب من صالة المدخل. وحسب موقع البيت أو حاجة الأسرة وحالتها المادية فإن هذه الغرف قد تزيد أو تنقص داخل البيت الواحد. ففي المدينة المنورة ومكة المكرمة مثلاً نجد الحوش يحتل الطابق الأرضي من البيت، ولا نجد الأحواش في بيوت جدة مثلاً. كذلك كانت بيوت التجار الموسرين تشتمل على أكثر من مقعد وأكثر من مدخل ودرج ومخزن، وذلك لكبر مساحة هذا الطابق من البيت وعدد أفراد الأسرة التي تسكنه.

وفي البيوت الحجازية المتوسطة والكبيرة أكثر من مدخل (اثنان في الغالب) أحدهما لدخول الضيوف من الرجال، والآخر لدخول النساء وأفراد العائلة. ونجد في بعض هذه البيوت أيضاً أكثر من درج يؤدي إلى الطوابق العليا، وذلك في حالة وجود مقاعد للزوار في هذه الطوابق.

توجد مصطبة خارج باب المدخل، وهي مكان للجلوس، يرتفع عن الأرض حوالي ٥٠ إلى ٧٠ سم، وتبنى من الحجر غالباً، أو من الطين كما هي الحال في بيوت المدينة المنورة. تستخدم هذه المصطبة للجلوس في فترة ما بعد الظهيرة مع الجيران أو المارة وتجمع أفراد العائلة من الرجال مع ضيوفهم وجيرانهم حتى مغيب الشمس.

أما الدهليز فهو ممر يصل بين باب المدخل والبيت نفسه. هذه المنطقة الانتقالية لها دور مقسم، بين المناطق العامة في البيت التي يشغلها الزوار، وبين المناطق الخاصة التي يشغلها سكان البيت، كما أن لها دوراً في حفظ الخصوصية والتقليل من الأتربة العالقة في الهواء الداخل إلى البيت، وكذلك لها دور في تهيئة تيار هوائي مستمر إلى داخل البيت.

اتخذ هذا الدهليز في أغلب بيوت الحجاز شكل صالة واسعة نسبياً، وخاصة في البيوت الكبيرة، واستخدم لاستقبال الضيوف. كان الدهليز يرصف بترابيع صخرية ويفرش بالحصير أحياناً. وعلى جانبي الدهليز مراكيز (مفردها مركاز، وهو مقعد خشبي مرتفع عن الأرض) أو مصاطب للجلوس، وفي فترة الصيف

الدهليز في أحد بيوت الطائف

يرفع الفرش ويرش الدهليز بالماء لتلطيف الهواء وتبريده.

ويكون الدَّرَج غالباً في الأجزاء الداخلية من الطابق الأرضي وفي الجهة الأخرى من المنزل بعيداً عن المدخل ومنفصلاً عنه بواسطة ممر وغرفة انتقالية صغيرة. يبنى الدرج في الغالب من الحجر والخشب، ويكسى بالمونة وتحمى درجات السُّلم بألواح خشبية ٥سم × ٥سم تسمى الفرشه، أما البسطات المسطحة للدرجة فهي خشبية وتدعى النقله. وتختلف تقنية بناء الدرج من مدينة إلى أخرى؛ إذ يستخدم الطين مثلاً بدلاً من الحجر في بعض بيوت المدينة أو يستعاض عن الأجزاء الخشبية بأخرى صخرية في بيوت مكة المكرمة وجدة.

يفتح الدرج في الغالب على منور أو بئر السُّلم، وكان ذلك يمثل البناء الرئيسي الذي يعتمد عليه المبنى، خاصة في البيوت التي بُنيت في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.

كان الدرج في معظم الأحيان عدة أجزاء (قلبات) ابتداءً من الطابق الأرضي مؤدياً إلى الطوابق العلوية. كما كان الدرج يمثل عنصراً مهماً جداً للبنائين، ليس فقط لأن بناءه كان يحتاج إلى مهارة عالية، ولكن أيضاً لأنه كان يمثل عنصر المحافظة على علاقتهم بصاحب البيت

أثناء فترة الإنشاء. أما لصاحب البيت فإن الدرج كان يمثل نقطة المحافظة على خصوصية البيت، وبالذات بالنسبة للطوابق العليا حيث يتحرك أفراد العائلة، من الرجال وعمال السقاية أو النظافة.

ويطلق على الغرفة التي تستخدم في خزن الفحم اسم الديقيسي. ومع أن غرفة الديقيسي كانت في بعض بيوت جدة، ولو باسم آخر، إلا أن بيوت مكة المكرمة والمدينة المنورة بالذات امتازت بوجود هذه المساحة التي استخدمت لتخزين الفحم وأشياء أخرى. وهذه المنطقة في الجزء العلوي من بيت الدرج وكانت تحجب عن الأنظار، كأن تحجب بسقف مستعار، ويقال إن هذه الغرفة نشأت في المدينة المنورة لإخفاء المقتنيات الثمينة.

والمقعد كما يتضح من اسمه هو غرفة جلوس كبيرة المساحة إلى حد ما، على جانب أو جانبي الدهليز أو المدخل. ومن الممكن أن يكون هناك أيضاً مقاعد في الطوابق العليا في بعض بيوت الحجاز، وذلك حسب مساحة البيت والحالة المادية والاجتماعية لسكانه. وكان المقعد يستخدم عامة غرفة مكتب أو لاستقبال الرجال من زوار البيت، كما أنه يستخدم أيضاً جناحاً لنوم الضيوف (أو الخدم في بعض الأحيان). وفي فترات الظهيرة الحارة كان صاحب البيت يستخدم المقعد

المقعد في أحد منازل الطائف

للنوم، نظراً لكبر حجم الفتحات والنوافذ الموجودة في هذه الغرفة. كما يُستخدم المقعد أيضاً لتخزين البضائع في بعض البيوت الحجازية.

وفي المقعد جزء لتجهيز الشاي والقهوة للضيوف، مجهز بكوانين (جمع كانون) لتسخين الماء. وفي الجدران أرفف غائرة تسمى الكمار، كانت تفرش بمفارش وتغطى بستائر لحماية المقتنيات الخفيفة، من كتب وكؤوس وأباريق، من الأتربة، ولإضافة شكل جمالي للجدران.

وفي المقعد نجد روشاناً أو عدة رواشين (غالباً اثنين) تطل على الشارع أو الطريق المؤدي إلى البيت. وفي داخل الروشان مصاطب خشبية ترتفع ٥٠سم مغطاة بالمراتب المحشوة بالقطن والطرف والسجاد والمساند المعروفة بالباطرمات (جمع باطِرْمَه). ويجلس الجالس متربعاً على هذه المجالس مستنداً بظهره على الجدار الخلفي للمجلس، ولذلك كانت توضع المساند القطنية لزيادة الراحة في الجلوس، وكانت هذه الأخيرة تعرف بالمخدات أو الليانات (جمع مخدة وليانه).

وعلى الرغم من أن المقاعد الخشبية المجدولة من الخوص والليف التي كانت توضع في الغرفة لم تكن معروفة في مدن الحجاز حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، إلا أن سكان البيت أو ضيوفه استخدموا السجاد للجلوس على الأرض، وكذلك جلود الحيوانات بصوفها (الجاعد) وسعف النخيل المجدول المعروف بالحصير. وفي أوائل القرن التاسع عشر كانت الكراويت (جمع كراويته) وهي مصطبة خشبية مرتفعة عن الأرض تستخدم للجلوس في المقعد في بيوت التجار الموسرين، ومن الكراويتات ما يكون كالطاولات المنخفضة تستخدم للنوم بعد فرشها، خاصة في الأسطح والخارجات. وكانت أرض المقعد تفرش بالسجاد الإيراني المعروف بارتفاع ثمنه لشكله الجميل ووجاهته، ولزيادة الحماية من صلابة الأرض أثناء الجلوس. وللحماية من البرد أو الحر يوضع عدد من الحُصر أو السجاجيد بعضها فوق بعض في بيوت الأغنياء. وفي هذه الحالة تصبح الغرفة أريكة كبيرة وأي مكان في الغرفة يكون ملائماً للجلوس؛ وبذلك تستوعب الغرفة عدداً كبيراً من الضيوف يجلس كل منهم حسب رغبته.

ومن مكونات البيت الحجازي الروشان، والرُوشَان اسم فارسي يعني المضيء أو قصر الضوء ويمثل امتداداً للغرفة إلى خارج البيت ويوفر لأفراد

العائلة الانتقال من مساحاتهم الداخلية إلى الخارج.

والرواشين أماكن جلوس ونوم بارزة عن واجهة البيت بواسطة بنية من الخشب المزخرف ذي الفتحات العديدة والمتحركة، وغالباً ما تكون من خشب التيك. يزخر الروشان بزخارف محفورة وبارزة وقضبان معدنية وأجزاء خشبية عالية الجودة، ولذلك كان يعد من أكثر عناصر البيت الحجازي تكلفة.

تستقبل الرواشين النسيم العليل من ثلاث جهات وذلك لبروزها عن البيت

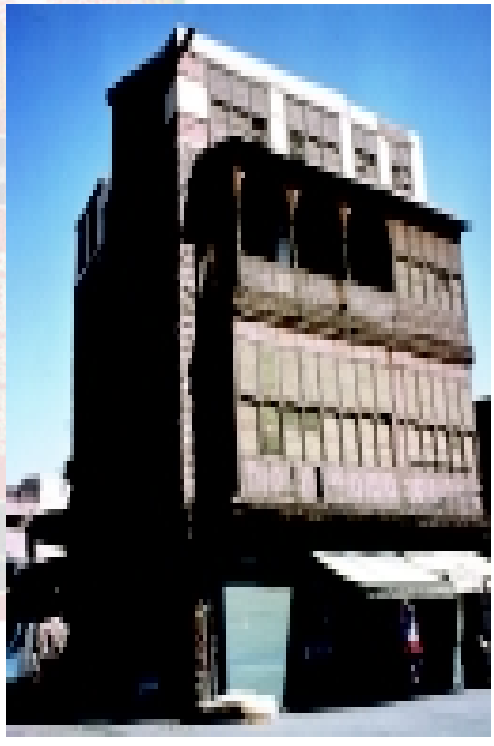

الرواشين من مكونات البيت الحجازي القديم

ولحجمها الكبير، إذ إن الروشان كان يتسع لنوم فردين بالغين وبارتفاع يسمح لهما أن يقفا داخله (غالباً ما تكون مقاييس الروشان هي ٣م × ٢,٥م وبعمق متر أو أكثر). يفرش الروشان من الداخل بمراتب قطنية مغطاة بقطع من السجاد، ويحاط بمساند قطنية لتكون أريكة للأصدقاء والأقارب للجلوس أو النوم داخل الفراغ ذي النسيم اللطيف في الجزء الداخلي العلوي للروشان. وكانت المصابيح الزيتية تتدلى لتضفي الطابع الخاص لجلسة الروشان. وفي الغرف الكبيرة كانت هذه المصابيح تتدلى من السقف بواسطة مخاطيف حديدية أو من داخل محاريب صغيرة في الجدار لزيادة الإضاءة ليلاً. وكانت هذه المصابيح الزيتية في متناول اليد ليتحرك بها أهل البيت في أرجاء البيت وداخل الروشان نفسه.

ومن الاعتقادات الخاطئة لدى بعض الباحثين والمعماريين المهتمين بالعمارة التقليدية، أن الروشان كان يمثل البديل الحجازي لمعالجة فتحات النوافذ. وفي الحقيقة كان للروشان أكثر من استخدام مما يجعلنا نعده أكثر من معالجة للفتحات، منها مثلاً أن التعبير الحجازي «رَوْشَنَ»، أي جلس في الروشان كما جاء في رواية أحد المعلمين القدامى «كنا نِروْشِنْ ساعة

العصريــة وننام». أما التســمية المصرية للروشان وهو المَشْرَبِيَّه فكان بسبب تعود الأهالي هناك على وضع القِلاَل الفخارية داخل فتحــات الروشان حتى يبرد المــاء بها بسبب مرور الهواء عليها من خلال هذه الفتحات. ولم يستخدم أهل الحجاز هذا الاســم حتــى في خــلال الوجــود المصري في الحجاز في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، والــعكس صحيح، أي أن معلمي البناء في مصر لم يستخدموا كلمة روشان لوصف مشربياتهم.

وعلى أي حال، تمثل هذه العناصر الخشبية الجميلة خاصية واحدة من أهم خصائص واجهات البيت الحجازي المتعدد الطــوابق، فــهي تــدل علــى المستــوى الاجتماعي لأهل البيت، وتقوم بتصفية الهواء الــداخل إلى البــيت من الأتربــة العالقة به، كما أنها توفر متنفساً خاصاً لسيدات المــنزل، إذ إن جلسة الروشــان كانت تسمح لهن بالاطلاع على ما يكون خارج البيت من غير أن يظهــرن للمارة في الحارة.

وكان هناك بديل أرخص سعراً من الروشان فــي بيوت العــائلات التي لا يمكنها تحمل تكاليف تغطية نوافذها بهذه العناصر الخشبية، وتسمى هــذه البدائل بالشيش، وهي تسمية واختراع مصري كما ذكــر المعلمون. والــشيش شرائــح

نوع من الشيش البديل الأرخص للروشان (الطائف)

الشيش في منزل بالطائف كما تبدو اللياسة الجصية على واجهة المبنى

خشبية رفيعة يمكن التحكم في اتجاهاتها، وتثبت داخل إطار خشبي يثبت مباشرة داخل النافذة ولا يبرز عنها كما هي الحال في الروشان ولذلك لا يوفر أماكن للجلوس أو النوم.

يتوقف ترتيب وضع الروشان أو الشيش على واجهة البيت الحجازي على استخدام الغرف المطلة على الشارع، وعرض الزقاق الفاصل بين بيتين متقابلين، وعدد من الاعتبارات الجمالية الأخرى. كل هذه الأسباب تجعل تشابه أكثر من روشان في أي من مدن الحجاز أمراً نادراً، إذ إن اختلاف أحجامها ونسبها وزخارفها وطرق معالجة فتحاتها وترتيب وضعها على واجهة البيت أمر متنوع بشكل لا نهائي.

ومن مكونات البيت النموذجي الحجازي القبو، وهو الغرفة في بيوت مكة المكرمة التي تكون غالباً تحت البسطة الأولى للدرج في الطابق الأول، ولذلك فإن سقفها يكون منخفضاً ويتشكل حسب أسلوب بناء الدرج. وكانت هذه المساحة تستخدم لتخزين الأشياء الكبيرة التي يصعب حملها للطوابق العليا. وفي بيوت التجار استخدمت هذه الغرفة مخزناً للبضائع والفحم وأمتعة السفر.

قبو بأحد منازل المدينة المنورة القديمة

وكذلك ربما كانت هذه الغرفة تستخدم للمبيت، لاعتدال درجات الحرارة بها بسبب الرطوبة وعدم وجود فتحات لدخول أشعة الشمس (غالباً ما يكون المبيت بها للرجال من الخدم أو حتى أهل البيت). وفي بعض البيوت الحجازية استخدم القبو خزاناً للماء، أو يجهز تجهيزاً فاخراً يجعله صالحاً لاستخدامه غرفة جلوس للعائلة.

ولم تخلُ البيوت الحجازية، وخاصة الكبيرة منها، من صهريج في الطابق السفلي من البيت لتخزين مياه الأمطار التي كانت تتجمع فوق سطح البيت. وكانت هذه المياه تنتقل من السطح إلى الصهريج بواسطة أنابيب نصف أسطوانية قائمة، تعرف بالقصبة. وكانت هذه الصهاريج تملأ أيضاً بواسطة السقّا الذي كان يحمل الماء من الآبار والعيون إلى البيوت. وامتازت مدينة جدة بهذه الطرق لملء الخزانات، بالإضافة إلى الماء الذي كان يأتي من محطة تحلية ماء البحر والتي كانت تعرف بالكنداسة، وينقل إلى المنازل بواسطة الدواب.

ومن مكونات البيت الحجازي النموذجي الفناء أو الحوش، وينتشر غالباً في بيوت مكة المكرمة والمدينة المنورة،

وهو ساحة من الأرض يحيط بها البناء، فإن كانت داخل البيت فتعرف بالفناء، وإن كانت ملاصقة لأحد جوانب البيت فتسمى بالحوش. وتكاد تكون الأفنية غير موجودة في البيوت التقليدية بجدة، لعدم توافر مساحات للبناء في جدة، نظراً لوجود السور المحيط بها، وعدم مناسبة الفناء لمناخها الرطب.

ويمثل الطابق الأول فوق الأرضي في معظم البيوت الحجازية جناح العائلة السَكَنيْ وغرف المعيشة. والطابق الأول عادة يتكون من مجلس، وهو غرفة جلوس ومعيشة، ومُؤَخَّر، وهو جناح معيشة داخلي خاص بالنساء، ومبيت، وهو أيضاً جناح للنوم. يخدم هذه الأجنحة عدد من الفراغات الأخرى كالمخزن والصُفّة والخَارِجَة والمرَكَّب أو المطبخ والطهارة (دورة المياه) أي بيت الماء وسطح ذي خارجة.

أما المجلس فهو أهم غرف البيت الحجازي، وتلحق به غرفة صغيرة تعرف بالصُّفَّة، ومساحة صغيرة لإعداد الطعام، ومكان للغسل، وحمام، ومخزن. وتشغل كل عائلة من العائلات التي تسكن البيت واحداً من هذه الأجنحة أثناء الليل، أما في فترات النهار والظهيرة فإنها تُستخدم غرف استقبال للنساء من الزوار ولمعيشة العائلة. ويخصص جناح من هذه الأجنحة لكل عائلة جديدة تسكن البيت (عند زواج الابن مثلاً).

والمجلس في مقدمة البيت، على الواجهة الرئيسية له، والمجلس هو الغرفة الأكثر برودة وهواء في البيت، لاحتوائها على فتحات كبيرة ورواشين. وكان يراعى دائماً أن يكون أحد رواشين المجلس موجهاً نحو الشمال والآخر - إن وجد- نحو الجنوب حتى يستمتع سكان البيت بجلسة الروشان في فصلي الشتاء والصيف.

يفرش المجلس بدكك خشبية تستند إلى جدران المجلس الأربعة، وتفرش أرضياته بسجاد فارسي، خاصة في بيوت التجار، أو الحصر الهندية والإفريقية في بيوت متوسطي الدخل. وثمة طاولة رخامية أو خشبية في مركز المجلس وتعلوها غالباً قطعة نحاسية أو أواني غلي الماء لعمل الشاي أو القهوة. وتغطي جدران المجلس أرفف غائرة تستخدم لتخزين الأواني أو التحف الفنية، كما قد توضع على الجدران أيضاً المرايا الكبيرة.

وفي مكة المكرمة يتحول المجلس إلى مكان لإقامة الحجاج في موسم الحج، لكبر مساحته وقدرته على استيعاب عدد

كبير من الرجال. وبجانب غرفة المجلس غرفة صغيرة أخرى تعرف بالصفة وأخرى تدعى المخزن. تعد هذه الغرف لتخزين حاجيات الحجاج وأمتعتهم، كما توضع فيها المراتب وأدوات الطبخ.

ويعد المؤخر أو الغرفة الخلفية ثاني أكبر غرف البيت الحجازي من حيث المساحة، وتكون غالباً على أحد جانبي غرفة الاستقبال أو معيشة الأسرة (المجلس). تتصل هذه الغرفة بباب يؤدي إلى الشارع الخلفي أو تفتح بها نافذة خلفية على الشارع الخلفي. وكانت هذه الغرفة تستخدم غرفة لجلوس نساء العائلة نهاراً واستقبال النساء من الضيوف. أما في فترات الظهيرة والمساء فإنها تتحول إلى غرفة معيشة أو نوم. وجناح المؤخر يكون من غرفة مخزن وغرفة صغيرة لإعداد الطعام ودورة مياه، إذ إنها كانت تستخدم أيضاً لمبيت إحدى العائلات التي تسكن البيت. تفرش الغرفة بدكك وحصر أو سجاجيد ومراتب قطنية ولكنها تقل في تكلفة فرشها عن غرفة الاستقبال (المجلس أو المقعد).

وفي هذه الغرفة أيضاً أدوات إعداد الشاي والقهوة، وهي عادة ما تتكون من جَزْوَه أو سموار لغلي الماء، وكاسات للشاي مستوردة من هولندا أو الصين.

ونستطيع أن نقول إن غرفة المؤخر أو جناحه كان يخدم عدداً من أغراض الأسرة كالاستقبال والمعيشة والنوم (في البيوت الكبيرة كان المؤخر يعد لنوم الأطفال، وينام الوالدان في غرفة المجلس).

والصفة غرفة صغيرة، غالباً ما تكون ملاصقة للمجلس أو المؤخر، واستخدمت مدخلاً انتقالياً لغرف الاستقبال أو معيشة العائلة. وفي بيوت جدة يلاصق الصفة عادة مطبخ ودورة مياه، وتستخدم الصفة غرفة للطعام أو لجلوس الأطفال والنساء. أما في بيوت التجار الكبيرة فقد نجد هذه الغرفة في كل طابق من طوابق البيت مجهزة بصناديق لتخزين الملابس وحاجيات أفراد العوائل المختلفة التي تسكن البيت، ويقل عدد هذا النوع من الغرف في البيت الواحد كلما صغرت مساحته وقل عدد أفراد العوائل الموجودة به، وكذلك تقل تجهيزاتها بحسب قدرة سكان البيت.

أما الخزانة أو المخزن فهي الغرفة الصغيرة التي تقع على أحد جانبي غرفة الاستقبال وتخزن بها قطع المفروشات المستخدمة في غرفة المجلس من مراتب وأغطية. أما الحاجيات الصغيرة والخفيفة فكانت توضع في صناديق داخل غرفة

المبيت أو المجلس أو في الفراغ الموجود تحت البسطة الأولى للدرج والتي تدعى الحَنِيّه وذلك لانحناء سقفها الذي يمثل قاعدة الدرج.

وكانت الأغراض الصغيرة والخفيفة كأواني إعداد الشاي والقهوة وزجاجات العطور توضع على رفوف تنتشر على جدران المنزل. وهناك أيضاً أماكن تخزين أخرى تعرف بالمخلواني وتشتهر بها بيوت مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهي عادة ما تكون في الأماكن التي يمكن استخدامها للمعيشة لصغر حجمها.

وبيت الماء الرئيسي يكون في مواجهة الصُفّة أو متصلاً بها بمر أو ما يشابهه. ويتصل أيضاً بيت الماء ببيت الدرج لتيسير مهمة السقَّا (حامل الماء) لتوصيل الماء إلى الأحواض الموجودة في بيت الماء أو خارجه. وكان هناك وعاء فخاري كبير لتخزين الماء، يعرف بالزير المغربي، وقطع من الصابون، وليفة للغسل، ومقعد صغير منخفض للجلوس أثناء الاغتسال، وأواني صغيرة لحمل الماء.

كانت أرضية الحمام تعالج بالنورة والجبس والقطران لعزلها ضد تسرب الماء الذي كان يتم التخلص منه من خلال أنبوبة قائمة تسمى القصبه إلى الشارع أو خزان الفضلات تحت الأرض. وكانت هذه القصبة تمتد من سطح البيت إلى الأسفل مارة بجميع الطوابق لتجميع الماء، وكانت لها فتحة للتهوية في أعلاها.

يقوم النزاحون (عمال نزح خزان الفضلات) بنزح الفضلات الموجودة في الدّبل (الخزان الأرضي) مرة أو مرتين في العام حسبما تدعو الحاجة إليه. وكان الماء يغلى على دوافير، أو سموار في المرحاض الرئيسي للبيت ثم ينقل إلى مكان استخدامه سواء في المطبخ أو في دورات المياه الصغيرة الأخرى.

وفي بيوت التجار الكبيرة الحجم، كانت المراحيض تجهز بما يعرف بالحنفية، وهي خزانات مياه مبنية داخل الحمام من الحجر المعالج بالنورة والزيوت لمنع تسرب الماء منها. وكانت مهمة السقّا في هذه الحالة هو ملء هذه الحنفيات (الخزانات) بالماء مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع، إذ إنها كانت ذات سعة كبيرة تستوعب كميات من المياه أكثر من تلك التي كان يستوعبها الزير المغربي.

وغالباً ما يكون المطبخ في الطوابق العليا من البيوت الكبيرة المتعددة الطوابق بجانب الغرف المطلة على الشرفات (الخارجات). وكان المطبخ يجهز ببناء مكعب يستخدم لحرق الأخشاب أو

الزيوت لتسخين الطعام، يعرف بالفرن، وفي أعلى سطحه عدد من الفتحات المغطاة بقضبان حديدية رفيعة توضع فوقها أواني الطهو النحاسية، وكانت مادة الوقود الرئيسية هي فحم الخشب بجانب المواد الأخرى.

كان المطبخ يجهز أيضاً بدواليب وسحارات لتخزين أواني ومعدات الطهو بجانب الأرفف الموجودة على الجدران المعروفة بالنملية (تسمية مصرية الأصل تشير إلى إبعاد النمل عن هذه الدواليب). وفي البيوت الكبيرة كان هناك مطبخ واحد على الأقل في كل طابق من البيت مع وجود مطبخ رئيسي كبير في آخر طوابق البيت للمناسبات المهمة.

وفي بعض البيوت الصغيرة الحجم لم تكن هناك غرفة مخصصة لإعداد الطعام، لذلك كانت الخزانة تستخدم بديلاً للتخزين وطهو الطعام. وفي مثل هذه الحالات كانت الخزانة تجهز بمكان لتخزين الماء والطعام وفتحات تهوية. علماً بأن غرفة الخزانة كانت تستخدم أيضاً لاستقبال المقربين من الأهل والأقارب من النساء، حتى في حالة استخدامها مطبخا.

أما المبيت فهي غرفة في مواجهة المطبخ أو الطوابق العليا من البيت، وغالباً ما تكون متصلة بخارجة أو شرفة. وكانت غرفة المبيت متعددة الأغراض مثل باقي غرف البيت الحجازي إلا أن استخدامها الرئيسي للنوم (خاصة للنساء والأطفال) يعطيها صفة مميزة في البيت، إذ يغلب استخدامها للنوم في فترة الصيف، وذلك لاتصالها بالشرفة وكبر فتحات التهوية من نوافذ وشرفات وكثرتها.

وكانت غرفة المبيت تعد لاستقبال مستخدميها وذلك بغسلها بالماء يومياً، ثم تفرش المراتب القطنية على أرضيتها في بيوت التجار الكبيرة، وكانت هناك غرفة مبيت خاصة بالخدم.

وتكون الخارجات في الطوابق العليا من البيت، وتستخدم للنوم ولعب الأطفال واستقبال الأهل والأقارب وإقامة الولائم وتحضير الطعام في المناسبات الخاصة وغسل الملابس ونشرها. وكانت الخارجة غالباً متصلة بمطبخ صغير ودورة مياه وذلك في البيوت الكبيرة. ويشتهر البيت الحجازي، وخاصة في مكة المكرمة وجدة، بوجود أكثر من خارجة في طوابق مختلفة من البيت بحيث توزع على طابقين أو ثلاثة.

ويحيط بالخارجة سور خشبي ذو فتحات صغيرة تسمح بدخول الهواء،

ولكنها تحجب الرؤية من الخارج أو تستبدل بها قطع متراصة من الحجر، خصوصاً في مكة المكرمة، تؤدي الغرض نفسه. ويعرف النوع الأخير من الأسوار الحجرية الملونة باسم الآجور أو الآجر، وقد تفنن البناؤون الحجازيون في زخرفة هذه الأسوار وتلوينها حتى إن بعض الباحثين يعتقد أنه لا يوجد تشابه في زخرفة هذه الأسوار بين بيتين من بيوت الحجاز.

وفي مدينة جدة، وبسبب قلة مساحة الأرض المستخدمة للبناء، كانت الأسطح تستخدم بديلاً عن الأفنية التي تكون في بيوت مكة المكرمة والمدينة المنورة. وكانت الأسطح تستخدم أيضاً لتجميع مياه الأمطار ولذلك كان المعلم الحجازي يراعي وجود ميل يسير في أرضية الخارجة باتجاه القصبة الخاصة بجمع مياه الأمطار من السطح إلى الصهريج في أسفل البيت، وتفرش الخارجات بالمراتب القطنية التي كانت تخزن في سياسِم أو سحارات، وهي صناديق أو دواليب توضع فيها الملابس.

مما يذكر أيضاً أن مساحة السطح تكون أصغر من مساحة الطوابق نتيجة لرغبة المعلم الحجازي في تقليل حجم المبنى في اتجاه الطوابق العليا. كما كان السطح محمياً من جميع جوانبه بواسطة ستارة ومفتوحاً إلى السماء. وكانت الأسطح توفر لساكني البيت مكاناً

يستخدم السطح في فصل الصيف مكاناً للنوم (الطائف)

للجلوس والنوم في الهـواء الطلق، مع المحافظة على خصوصيتهم التامة، كما أنها توفر لـهم الاستمتاع بمستوى رؤية أفقي وعمودي دون الحاجة إلى مغـادرة البـيت. والأسـطح ذات الارتـفاعات المختلفة، بأسوارها الخشبية أو الحـجرية الملونة والمزخرفة، تـعد من أهم مميزات العمارة الحجازية التي تتـنوع فيها نسب الفـتحات وتوزيـع الكتـل واختلافات الألوان.

زخارف البيوت الحجازية

كان البيت الحـجازي يزخرف بعدة أنواع من الزخارف التي يمكن تـقسيمها إلى ثـلاث فئات: أشـكال هنـدسية، وأشكال نباتية، وكتابات.

ولتـنفـيذ أيٍ من هـذه الأنواع مـن الزخارف كان المعـلم الحجازي يستخدم

أعمال زخرفية من الجص على واجهة إحدى النوافذ بالطائف

زخارف جصية فوق مدخل أحد بيوت الطائف

الجبس (الجص) والخشب لتحقيق زخرفة بارزة منخفضة، والدهانات والألوان لتنفيذ الزخارف المسطحة والرسومات، والمطارق لتنفيذ الزخارف المحفورة داخل الجدران. كما تتطلب الأعمال الخشبية تقنيات للف الخشب وتدويره وحفره وتلوينه وتجميعه من قـطع صغـيرة إلى أشكـال كبيـرة. وتستخدم أنواع معينة من الخشب تناسب الزخارف المطلوبة.

ونظراً لأن غالبية بيوت جدة والمدينة المنورة كـانت تبنى بمواد رسـوبية قابلـة للتشكيل والزخرفة، مثل الحجر الجيري

الزخرفة عن طريق البناء بالطوب الملون (الآجر)

في جدة، والطين في المدينة المنورة، فإن معلمي البنـاء في هاتين المدينتين بالغوا في زخرفة تـيجان الأعمدة والحفـر في الحـوائط والأشـكال الأخـرى البـارزة والغائرة. أما بيوت مكة المكرمة فكانت تعتـمد في بنائـها على الحـجر الجبلي البـازلتي أو الجـرانيتي الـصلد، الـذي يصعب حفره، مما أدى إلى عدم وجود زخارف كثيـفة على الجدران والأعمدة في مكة. وكانت بدائل الزخرفة في مكة المكـرمة والطائـف هي الطـوب الملون (الآجر) والأشكال الهندسية البسيطة التي يمكن تنفيذها بتكرار رص الطوب بطريقة معينة. وفي بيوت التجار الكبيرة نجد أن هناك نقوشاً وزخارف ترجع إلى ما قبل الإسلام من مناطق مـختلفة من العالم كالهند وتركيا وحتى الصين. ونجد أيضاً نقوشاً وزخارف اعتمدت على نمط الخط العربي الجميل المسـتخدم لكتابة الآيات القرآنية والأحاديث.

البناء بالطوب (الآجر) مع بناء روشان فوق المدخل، وشيش على بقية النوافذ وحلوق جصية حول الأبواب والنوافذ

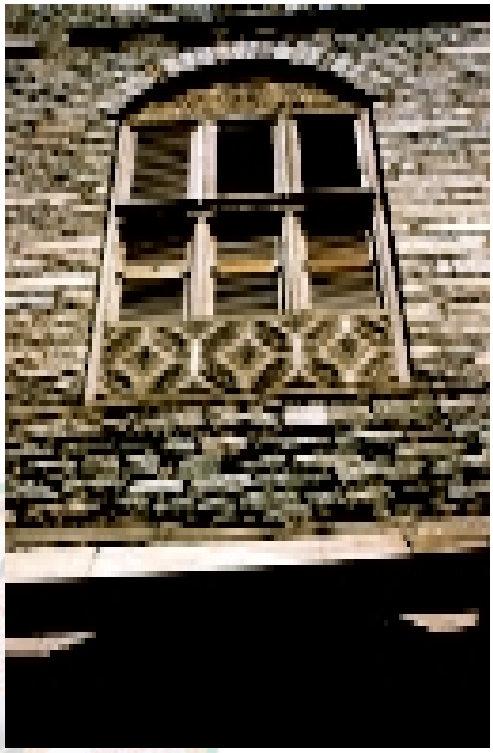

الزخرفة على خشب النوافذ بالطائف

أعمال الزخرفة على أحد الأبواب بالطائف

وشملت أعمال الخشب في الحجاز إطارات النوافذ والأبواب وأسوار الخارجات والعقود وعوارض النوافذ والشرفات. ومعظم الأخشاب كانت تستورد من إفريقيا والهند وإندونيسيا. وامتازت نوعية الأخشاب التي كانت تستورد من هذه المناطق بصلابتها، مما جعلها صالحة للبناء الأساسي للبيت. ومع ذلك فإن أنواعاً من الخشب أخف وزناً وصلابة كانت تستورد إلى الحجاز من هذه المناطق نفسها، وكانت تستخدم لصناعة الحليات والشبكات الخشبية لواجهات الرواشين والأعمال الخشبية الدقيقة. أما الشرفات فكان بناؤها يستوجب الخلط بين أنواع مختلفة من الأخشاب الصلبة والخفيفة.

طرق البناء

هناك بيوت تبنى ذاتياً، أي كان يبنيها الناس لأنفسهم، تسمى الشغل، وكانت تقطنها العائلات من ذوي الدخل المحدود. وكانت هذه البيوت تبنى بجدران من أعمدة خشبية تعرف بالردوف صنعت من أخشاب الجندل (خشب

هندي) ونخيل الدوم الذي كان يجلب من السودان. إلى جانب ذلك كانت هناك مساكن صغيرة تبنى من الطين وجريد النخيل يمتلكها أو يستأجرها بعض المقيمين غير الحجازيين. وعلى سبيل المثال كانت جالية الأفارقة السود الذين يعيشون خارج أسوار مدينة جدة في حي نكتو يستخدمون هذه المساكن الصغيرة.

أما المنازل التي يبنيها المعلمون وهم البناؤون المتخصصون، فهي من الأحجار أو الطين أو الكتل المرجانية، وكانت تنقسم إلى فئتين، فئة المنزل الشعبي، وفئة أخرى تمثل بيتاً أكبر، وهو السرايا، ويطلق ذلك على البيت الكبير أو القصر. وهذان النمطان كانا متشابهين، لكن الاختلاف هو في أن المنازل الكبيرة كان يُستقدم لها بناؤون أجانب وعناصر معمارية أجنبية، وكانت تعتمد على مواد أغلى، وتتطلب أساليب تقنية متطورة، وأحياناً يوضع لها مخططات؛ مثل التناظر، واقتفاء طرز معمارية، مثل العثماني القاهري والسوري. وبعض هذه المنازل الكبيرة ظلت تكبر وتتسع حتى بداية القرن العشرين، وكانت تمتاز بأنها بنيت وفق مساقط متناظرة وقسمت إلى شقق للأبناء المتزوجين.

ولم تكن خطوات وأساليب البناء تأخذ التسلسل والترتيب نفسه عند كل البنائين، فربما اختلفت من معلم إلى آخر تبعاً لاختلاف الأفراد وخبراتهم، ولكننا هنا سنستعرض الطريقة الأكثر شيوعاً، حسب ما ذكر المعلم صدقة كركشان، وهو آخر شيخ للبنائين في مدينة جدة القديمة منذ سنة ١٩٤٧م (١٣٦٧هـ).

كانت عملية تصميم البيت وبنائه تتم بمبادرة مالك الأرض (صاحب البيت)، إذ يقابل المعلم في القهوة أو الصندقة حيث يجتمع الحرفيون من مهن مختلفة كل ليلة. يختار المالكُ المعلم الذي يتوسم فيه الخبرة والاستقامة. وكانت مساحة البيت ومواد بنائه هي أهم المعايير التي يُعتمد عليها في اختيار المعلم. أما تفاصيل التصميم مثل عدد الغرف ومواقعها وعدد المجالس المطلوبة والمؤخر وعدد الطوابق فهذه كانت تناقش في مقابلة مبدئية على فنجان من الشاي.

يكون مالك الأرض أو صاحب البيت هو المشرف، وقد ينيب ممثلاً له، وذلك لأن رئيس العائلة الكبيرة يكون هو الشخص المسؤول الذي ينقل المتطلبات والاحتياجات إلى المعلم الذي يقع عليه الاختيار.

ويعتمد مخطط المنزل على الموقع الذي سيشغله المنزل، وكذلك على اتجاه

الرياح السائدة، ومساحة الأرض وشكلها ونوع التربة. وبعد دراسة هذه المتغيرات يتقدم المعلم بتصميمه الذي يكون متفقاً مع إمكانات الأرض. والمرحلة الثانية في العملية هي ما يمكن أن نسميه بمرحلة التصميم الابتدائية. وحول هذا الموضوع قال المعلم صدقة في حديث له «تبعاً لما هو متعارف عليه من الأعراف السائدة والسلوكيات للاحترام، فإن الزبائن تقابلني وتقول لي: سيد المعلمين صدقة: أنا أريد مجلسين كما تحب على حسب مزاجك وحرفتك» (مقابلة شخصية جدة: ١٩٩٠). كان المجلس في العادة أشبه بالجناح يشمل مطبخاً ودورة مياه وحماماً، بينما المؤخر من غرفتين ومطبخ وحمام.

إن معظم المعلمين لا يكوّنون دائماً الصورة الكاملة لما سيقومون ببنائه بالضبط قبل بدء البناء. هناك بعض الأشياء التي يعرفون بالتأكيد كيف ستكون، أو أين ستكون، مثل السلم، والحمامات، إذ يبنى كل حمام فوق الحمام الآخر. وقد يكون لدى المعلمين تصور عما يجب أن تكون عليه الأشياء، ولكن لأنهم لا يريدون تكرار أنفسهم في كل مبنى، فهم ينوِّعون في التصميم من مبنى إلى آخر، خصوصاً فيما يخص أشكال الرواشين والواجهات ومواقعها. وهناك بعض الأشياء التي لا يملكون لها صورة على الإطلاق حتى يبدأوا العمل. على سبيل المثال، قد يعرف المعلم أنه من المطلوب بناء خارجات (أسطح)، لكنه لا يعرف أين ستكون مواقعها، وكيف سيكون شكلها حتى يصل البناء إلى الطابق الثاني.

يرسم المعلم مسقط الطابق الأرضي على الأرض باستخدام عصا. ويبين هذا المسقط البدائي ترتيبات الغرف والدرج والمنافع، والمداخل والشبابيك. وتفرض الدعائم الحاملة المكونة من البتر (مفردها بترة، وهي عوارض خشبية طولها ٨م تقريباً) بعض القيود على مساحة الغرف التي يعرفها المعلم وزبونه. والقياسات تقدر بعصا المعلم التي تتساوى مع الذراع المعماري (٢٤ قيراط = ٧٥,٨٠سم).

ولم تكن المقاييس المستخدمة في البناء موحدة في المدينة الواحدة، بل ربما كان لكل معلم مقاييسه، فما بالك بمقاييس في مدن متباعدة، وذلك لأن الناس ألفوا بعض المقاييس لوضوحها لديهم فاستخدموها وتعامل الفنيون معهم بما يريحهم، والجدول التالي يبين أشهر المقاييس.

أداة القياس	طولها واستخدامها
الذراع البلدي	٢١ ٢/٣ بوصة
الذراع الإستنبولي	٢٦ ١/٢ بوصة تقريباً
الذراع الخشبي	٢٦ بوصة
الهندازه أو الهندس (هندس)	٢٥ بوصة قريباً
الفتر	هو ما بين طرفي الإبهام والسبابة
الشبر	ما بين طرفي الإبهام والخنصر
السند	يستخدم لقياس مسافات الشبابيك والدرج
القدَّة	خشبة مستقيمة مختلفة القياسات تستخدم في المقاييس الكبيرة، وتتراوح بين ٣م و٤م
البيكار	يستخدم في عمليات الدوائر والمنحنيات والعقود
الدستور	ويستخدم فى مساحات معينة ويتراوح بين ٨-١٠سم

ويروي المعلم صدقة كركشان أنه خلال أيام الأتراك (في الستينيات من القرن التاسع عشر الميلادي) كانت القدة مستخدمة، وهي قطعة من الخشب طولها ٥٨سم مقسمة إلى ١٨ قيراطاً، كل قيراط حوالي ٣سم أو أكثر قليلاً (ما بين ٣,٢ إلى ٣,٣سم).

وفي مقابلة أجريت مع المعلم أحمد حمزة الريفي ذكر أن مساحة الأرض في المدينة المنورة كانت تقاس بالمخزن، وهو وحدة قياسية للمساحة تساوي ٤٢م٢. وعلى سبيل المثال، الأرض التي مساحتها عشرة مخازن، مساحتها تساوي ١٠×٤٢= ٤٢٠م٢. وربما ذكر المعلم للزبون أن هذه المساحة تكفي لثماني أو تسع غرف أو مخازن. وعموماً، فإن مساحة أرض البيت تراوحت ما بين ٤٠٠م٢ و٦٠٠م٢، بينما كان متوسط مساحة البيت ما بين ٢٠٠م٢

إلى ٥٠٠م٢. ومن المألوف أن يحدد حجم البيت في المدينة ومكة بعدد الدواوين والدكك (جمع دكة) للجلوس. وعلى سبيل المثال يذكر الزبون للمعلم أنه يريد منزلاً من قاعة بدكتين، وديوان ومقعد، أو ديوان بدكتين. وهناك نمط آخر من الغرف عرف باسم الديوان المكاوي يتكون من دكة واحدة فقط (مقابلة شخصية المدينة المنورة: ١٩٩٠).

ويجب أن نلاحظ، تبعاً للعادات، أن الزبون لا يفرض عدد الطوابق ومساحاتها، فمن المتعارف عليه أن الزبون ينتظر المعلم ليقترح العدد المناسب تبعاً لخبرته ومعرفته بعائلة الزبون، وبعد ذلك يناقش الأمر مع الزبون. وربما يحدد المعلم كذلك نوع مادة البناء المستخدمة وأساليب البناء وعدد الطوابق وشكل المبنى وأبعاده وخصائصه. ويقرر الزبون الميزانية، وربما يقترح ويبدي رغباته في عدد الغرف ومساحاتها.

والمعلم بوصفه خبيرًا في فن البناء يعاين طبيعة التربة، ويقرر بعد ذلك نوع أعمال الأساس وامتدادها، ومدى مناسبة مواد البناء المخصصة لبناء المنزل المراد، أما بالنسبة للذوق الشخصي وخصائص ومتطلبات المالك، فالمعلم صدقة العُليمي يقول «عندما تصل إليَّ رغبات المالك واحتياجاته، فأنا أعرف بالضبط ماذا في رأسه، ماذا يحب، وماذا يكره، ماذا يفضل إخوانه وحتى أزواج بناته، ماذا يمكن أن يفضلوا في غرفهم» (مقابلة شخصية جدة: ١٩٩٠).

وإذا تمت الموافقة على المخططات الابتدائية مع التفاصيل الأخرى، مثل عدد الرواشين والبلكونات من قبل المالك وعائلته، فإن المعلم يمكن أن يناقش مع المالك الميزانية المطلوبة والمدة اللازمة لبناء المنزل تبعاً للمواصفات التي تم الاتفاق عليها. ويبقى فقط الاتفاق على نظام الدفع. ويجب أن يحضر عدد من الشهود أو أحد من رابطة البنائين في كلتا المرحلتين، ويمكن التغاضي عن بعض هذه الإجراءات إذا كان المالك جاراً للمعلم أو أحد أقربائه.

إن الموافقة على نظام الدفع تعد خاتمة الاتفاقات المبدئية لأعمال البناء. وكان هناك نظامان متميزان للدفع هما المقاولة (الجواده أو المجاوده)، والأجرة اليومية (دفعات يومية).

ولا يقبل المعلمون الدائمون النظام الثاني للدفع (اليومية) لأنه بجانب أنه أقل ربحاً فإنه كذلك أقل مكانة، لكن المعلمين المتواضعين ربما يقبلونه. وحينما يتم الاتفاق على نظام الدفع، تناقش

ميزانية الزبون، وليست هناك بالضرورة علاقة بين ميزانية الزبون ودخله، على الرغم من أن المعلم يكون قادراً على تقدير ذلك بشيء من الحكم الصحيح.

ويختلف سعر مواد البناء من معلم إلى آخر، لكن تقطيع الحجر، وهو مادة البناء الأساسية كان غالياً جداً لأن الحجر أكثر متانة وتحملاً من مواد البناء الأخرى كالطين والجص.

وكما في المفهوم المعاصر تعني الميزانية كم يستطيع المالك أن يدفع لمشروعه، ويعتمد ذلك على علاقات المالك مع عائلته وعشيرته ومعارفه. فعلى سبيل المثال، لو كان الزبون عريساً جديداً، فسوف يتلقى هدايا كثيرة من عائلته أو أقاربه لمساعدته في إقامة بيت الزوجية. ولو كان المالك من عائلة كبيرة، أو كان محبوباً ذا معارف كثيرين، فإن قدرته على الدفع ستكون أكبر، وهو أمر يدركه المعلم بخبرته. ويجب أن نلاحظ أن خبرة المعلم وشهرته تتيح له حرية كبيرة في تحديد حجم مشروعاته ونوع أصحاب البناء والبدلات التي يتقاضاها من المشروع، بل وتسمح له كذلك بتجربة أشكال وأفكار جديدة في حدود الإمكانات التي تقرها معايير تراثية مقبولة. ويذكر أنه في الستينيات من القرن العشرين كان الناس يعتقدون أن توظيف المعلمين الكبار سوف يقلل من تحكمهم في قراراتهم.

في اليوم الأول من بدء العمل في المشروع وبعد أداء صلاة الفجر، يغادر المعلم هو وفريق البناء المسجد متوجهين إلى موقع البناء لحفر الأساسات (رصد السيسان). وبعد عمليات تقليب التربة يبدأ بتحديد حواف المبنى الخارجية، وذلك بتخطيط مكانها على الأرض بعصا، وبوضع القطع النظيفة (الحجر المقطوع جيداً) في كل ركن من أركان الأرض. ويستخدم المعلم الأوتار لتحديد الخطوط المضبوطة التي يلتزمها البناء. ويأتي النَّوار (المبيض) ويضع النوره (الجير) على الأوتار لجعلها مرئية بوضوح. ويعرف الحجر الركني برأس الدماغ أو الركن.

إن التربة في جدة ذات أنواع عديدة، ففي بعض المناطق تكون من الحجر البحري (حجر جيري) أو السبخة (رمال ملحية) أو البطحا (الرمل) وصخور صغيرة، وفي أماكن أخرى تكون من الكاشور الناعم (صخور مرجانية صغيرة).

ويقول المعلم كركشان «إن إتقان البداية نصف العمل، لكن بعض المعلمين، هداهم الله، لا يحفرون إلى أعماق كافية لإزالة هذه المادة الناعمة بل يبدأون في البناء مباشرة، ويعتقدون أن

الأرض تستطيع أن تتحمل أثقاله، وذلك ليوفروا بعض المال، لكن ينتهون بدفع مال أكثر ويفقدون سمعتهم عندما يعدّلون بيوتهم. وبالنسبة لي فإن الأرض مثل جلدي أستطيع أن أشعر بها وأن أشمها، وأستطيع أن أعرف مرضها، وأن أعدَّ الدواء اللازم لها قبل أن تتألم» (مقابلة شخصية جدة: ١٩٩٠).

يبدأ وضع الأساس بالحفر إلى عمق مترين تقريباً تبعاً لطبيعة التربة وجودتها، ولارتفاع المبنى المتوقع وتعرف هذه العملية برصد السيسان أي موازنة الأساس. وحينما يتم الحفر، فإن المعلم وفريقه يصبون الدبس (طمي سميك من حوض البحر) والكاشور لتكوين طبقة رفيعة تكون عازلاً ضد مستوى المياه الجوفية المرتفع في جدة، وهذا الإجراء غير متبع في مكة. ويحضر الطمي من بحر الطين (خليج شمال غربي المدينة القديمة) بعربات تجرها الحمير، ويفرش ويرش بالماء والنورة، إذا كان سميكاً جداً، وبالبطحا (الرمل). ويعالج الطيان أو الخلاط هذا الطمي حتى يتحول إلى مادة تشبه المعجون، بعد ذلك يحمل في المساحي (مفردها مسحاة) ويستخدم ملاطاً.

يقول المعلم كركشان «أحسن أنواع المونة هو الطمي الأسود الذي يجلب من قاع بحيرة المنقبة، فهي سميكة وتستطيع أن تحمل كتلتين من الحجر البحري الصلب معاً كالأسمنت. إن آخر مبنى نفذته هو مبنى بيت الأفندي نصيف، وكان البنَّاء الأصلي له المعلم داندورة من مكة استخدم حشوة من نوى البلح مخلوطة بالطمي الأسود ليحصل على مونة سميكة صلبة أطلق عليها دبس» (المقابلة السابقة).

أما في المدينة المنورة، فإن أحسن أنواع المونة هو طمي السبخ (طين فيضي ملحي)، وكانت بسبب كثافتها وقوة لصقها حينما تخلط برمال تحضر خصيصاً من جبل سلع، لا تحتاج إلى أي معالجة أخرى. ويجمع هذا الطمي من الحقول التي تغمرها مياه الأودية والسيول، وكان يخلط برمال خاصة ثم يترك في موقع البناء لمدة يومين للتخمير قبل أن يستخدم. وهناك أنواع أخرى من الطمي، مثل الدهينة (الطمي الدهني) ويجمع هذا الطمي من المزارع ولا يستخدم في بناء أكثر من دورين بسبب سهولة تشققه، حسب رواية المعلم أحمد الريفي (مقابلة شخصية المدينة المنورة: ١٩٩٠م).

بعد وضع الطمي، يفرش عليه الحجر البحري الكبير (١م × ١,٥م) ليعمل حصيرة. وهذا الحجر كان أكثر

قوة وأكثر تحملاً من الحجر المنقبي، ولهذا كان غالباً ما يستخدم في الأساسات. وعند استخراج الحجر البحري من البحر، كان يقطع إلى ثلاث أو أربع قطع صغيرة لتسهيل النقل. والقراري أو (مُشَكِّل الحجر) الخبير والقوي بدنياً هو الذي يستطيع أن يتعامل مع هذا النوع من الصخور بسبب صلابتها وخشونة سطحها. وهو يعالج يديه بالملح والحناء في نهاية اليوم، ويضطر أحياناً إلى ترك العمل لمدة يومين حتى تلتئم جروح يديه. وقليل من القرارية يستطيعون قطع الحجر البحري إلى مربعات كاملة.

وعلى الرغم من أن بيوت حارة البحر في مدينة جدة كانت تمتاز بأنها اعتمدت على حجر البحر في الأساس والمبنى، إلا أن الحجر المنقبي، الذي يؤخذ من المحاجر الجبلية، كان شائع الاستخدام في بقية المدينة. وكانت حارة البحر في الأصل مستوطنة لصيادي السمك، وفي الأيام التي يقل فيها نشاط سوق السمك يعملون بقطع الحجر البحري ويحملونه في السنابك أو الدفل (أنواع من القوارب) لبيعه أو استخدامه في بناء البيوت. أما في مكة المكرمة والمدينة المنورة فنادراً ما تدعو الحاجة إلى وضع أساسات بسبب الطبيعة الصخرية للأرض، فالبناؤون هناك يبنون على أرض طبيعية. ومع ذلك ففي مناطق قليلة من المدينة المنورة كانت تبنى أساسات، لكن في غالب الحالات ربما كانت تردم الأساسات بالدبش لمستوى الشارع. وعلى خلاف معظم بيوت جدة فإن الأدوار الأرضية في مكة المكرمة والمدينة المنورة تبنى من حجر الجبال مما يعطي المنزل قدرة على التحمل أكبر من قدرة تلك التي تبنى من الحجر الجيري الناعم. ومن أنواع الأحجار التي تستخدم في البناء في المدينة المنورة الحجر البلدي أو الأسمر (أسود أو حجر جبلي) والحجر الزرايقي (حجر بركاني ناعم أو بازلتي) والطوب الأحمر أو الحجر السميسمي (حجر جيري مسامي) وكل منها يحتاج إلى قرارية متخصصين للتعامل مع هذه الأنواع من الحجارة.

ويستغرق وضع الأساس من أسبوع إلى عشرة أيام. ويبدأ العمل من صلاة الفجر ويستمر حتى قبيل الغروب بنصف ساعة، ويعتمد ذلك على حجم المشروع ونوع التربة. وخلال هذه الفترة يكون الزبون حاضراً ليحكم على مدى التقدم معطياً آراءه، أو يكون حاضراً في الموقع عند الغروب ليعلق على أي عمل ويدفع الأجر. ولو وافق على ما تم عمله فإنه يخبر المعلم بالانتقال إلى المرحلة التالية،

وإذا لم يوافق فإنه يناقش المعلم في التعديل أو إجراء التحسينات في جودة العمل. ويمكن عندئذ فصل المعلم ومن معه عند هذه النقطة، فالزبون يكون قادراً على تصور هيئة البيت من مخطط الأحجار الموضوعة.

تبدأ مرحلة رص الحجر عندما يصل مستوى الأرضية إلى مستوى الشارع. عندئذ يخطط المعلم مسقط الطابق الأرضي للبيت بالمقياس الطبيعي، مع إجراء تغييرات بسيطة إذا لزم الأمر. يتبع ذلك (النوَّار) بسطل النورة الذي يخطط ويحدد الأرض بالجير في حضور المالك. تُعلَّم من جديد الخطوط الصحيحة ومواقع الجدران والأركان، وذلك بوضع قطع أحجار مربعة في كل ركن بزوايا قائمة بينها. وتوضع صفوف من الأحجار الرابطة لإظهار حدود واضحة لمسقط المنزل على الأرض. والخطوة التالية هي بناء فحل الدرج (بيت السلالم) من مستطيل ذي حوائط حجرية عمودية على مستوى الأرض لإيجاد دعامة مركزية في البناء ترتفع إلى كل طابق، وتسمح بالمرور إلى السلم وإليها. وتربط الحوائط الخارجية بواسطة الأيادي (العوارض الخشبية) للدعم أثناء البناء والتعزيز فيما بعد، والمكان الخالي في داخل أسطوانة الدعامة يملأ بالطين والأحجار أثناء بنائها أو يترك خالياً كمكان للتخزين.

وتملأ حفرة الأساس بطبقة أو طبقتين من كتل الحجر. ويعتمد ذلك على مستوى انتظام أرضية الشارع. وقد يرفع هذا مستوى أرضية المبنى إلى ٤٠سم فوق مستوى الشارع. ثم تبنى الجدران حسب نمط الطابق الأرضي أو حدود مسقط المبنى وذلك بصفوف من الأحجار حتى مستوى الرواشين، حوالي ١,٤م، ويملأ بالرمل والأحجار المكسرة حتى ارتفاع ١,٣م على الأقل فوق مستوى الشارع ليحدد مستوى أرضية البناء.

توضع ألواح أو أعمدة من خشب الساج الهندي بعد كل ستة مداميك (المدماك طبقة من الأحجار حوالي ٢٠سم) وتسمى بتره أو قلبه، والغرض من وضع هذه التكليلة هو المحافظة على عرض الحائط وتجانسه. وتحزيم البيت بهذه الألواح الخشبية يعطي البيت قوة أعظم واستقراراً ضد (الترييح). وتقنية استخدام صفوف من الأحجار أو الطوب والخشب لبناء الجدران أو الحوائط عرف في القرنين السادس عشر والسابع عشر باسم البنيان الشامي؛ لأن أسلوب هذا البناء كان مستخدماً لدى الحرفيين السوريين.

لا تستطيع الألواح الخشبية أن تقاوم هجمات النمل الأبيض (العثة) ولكن المعلمين اكتشفوا طريقة لمعالجة الخشب بالمغري (نوع من الغراء يستخدم في بناء القوارب)، إذ كان الخشب يطلى بها قبل أن يستخدم في البناء. وذلك قبل استيراد أنواع مختلفة من الدهانات للبلاد.

وهذه الطريقة لم تحل دون انتفاخ الخشب في جدة بسبب ارتفاع نسبة الرطوبة، أو انكماش الخشب في مكة المكرمة بسبب الحرارة الزائدة وجفاف الهواء. وعلى كل حال فقد وجد أنه يمكن عمل عارضات ودعائم خشبية ناجحة في تحمل العوامل الجوية ومقاومة النمل الأبيض من جذوع النخل التي تجلب من وادي فاطمة بالقرب من مكة المكرمة أو من خشب الساج المستورد. وقد تطلب ذلك معالجات بسيطة عايشت الأحوال الجوية جيداً، مع العلم بأن التحلل الطبيعي للخشب لم يمكن تجنبه.

أمَّا في المدينة المنورة فيمكن أن يبنى الطابق الأرضي من اللَّبْن (الطين) الذي يصب في قوالب خشبية، ويدعم بأعمدة خشبية كما في مدينة جدة ومكة المكرمة، ويمكن أن يبنى كذلك من قوالب (بلوكات) الطين. وتتم صناعة قوالب الطين بوضع الطين الحلو (الطين الخالص) في قوالب ويترك ليجف في الشمس لمدة ثلاثة أيام أو أربعة. وتستخدم بلوكات الطين بنفس طريقة استخدام الطوب الأحمر. ودور الشمس في تجفيف وتسوية الطين أو الطوب الأحمر قد استبدل بالأفران التي تعرف بالكيوشه، وكان الطوب المحروق يستخدم في البيوت ذات الطابق الواحد أو الطابقين.

وصف ريتشارد بيرتون المدينة المنورة سنة ١٨٤٤م بقوله: «بنيت المدينة على هضبة تنحدر تدريجياً، من طبقة الطباشير ذات اللون الأبيض، والرمل المالح، والطفل الصلصالي الذي كانت الأحجار تصنع منه. والبيوت مبنية من خشب النخيل والطوب المحروق والسقوف المسطحة. والبيوت من طابقين، والمدينة محاطة بحائط من الجرانيت وكتل اللافا البركانية وتبنى وتثبت بالجير» (١٨٥٥: ١٧٨).

وفي حالة المباني العالية وعند إقامة الحوائط الساندة أو حوائط التحميل، كان يتجنب استخدام طوب اللَّبْن، ويستخدم عوضاً عنه الجرانيت أو أحجار اللابة البركانية. وفي مكة المكرمة والمدينة المنورة كان قطع أحجار البناء عملية باهظة الثمن، لكن بسبب خصائص التحمل القوية لدى الحجر، فإن هذه العملية أدت

إلى بناء بيوت أشد متانة، إضافة إلى أنه يمكن استخدام الحجر ثانية في حالة هدم المنشأ. أمَّا في مكة المكرمة فإن حجر الشميسي، الذي يُقطع من جبل الشميسي خارج مكة المكرمة، كان معروفاً بمتانته، ولهذا كان يكلف كثيراً. وفي المدينة المنورة كان لحجر سلع الذي يستقطع من جبل سلع خصائص مشابهة لحجر الشميسي.

كانت هناك عدة إجراءات تراعى أثناء بناء الطابق الأرضي، مثل مقاييس الرواشين والخزانات والحنيات في الجدار (للأرفف) ومن هذه الإجراءات كذلك إعداد العتبات، ومراعاة حجم وسمك التكليلات التي ستبرز عند قاعدة فتحات الروشان التي يمكن أن تسمى لسان الطاقة، أي دعامة الشباك. وهناك فروق عديدة بين الروشان والشباك ذي الشيش، وأكثر هذه الفروق أهمية، أن الروشان يمكن أن يبنى عند مستوى الأرض (على ارتفاع متر من سطح الشارع) أما شباك الشيش فيبنى على ارتفاع ١,٨م.

والشيشان والرواشين لا تصمم بشكل منفصل عن هيكل المبنى. وبعد استقرار المعلم على حجم الرواشين، يوصي الزبون بالنجار الأكثر خبرة ودراية بهذه النوافذ. ومن ناحية أخرى فإن ميزانية الزبون تحدد نوع الخشب ونوع الروشان (كانت توجد مشربيات مصرية مدعمة، ورواشين تركية صغيرة تعرف بالأقفاص) وكذلك خصائص الزينة وحجم الأعمال الخشبية.

وعلى الرغم من إمكانية الحصول على كتل خشبية تصل إلى ٨م (طرفة) فإن عرض الغرف لم يكن يزيد عن ٥م خشية انحناء عوارض السقف.

أما في حال إنشاء الطوابق المتكررة ورفع البناء، فإن مسقط الطابق الأول يتبع مسقط الطابق الأرضي، وذلك كامتداد رأسي للحوائط، ما لم يكن المبنى من طابقين فقط مع شرفة أو خارجة (تسمى الخارجة في المدينة المنورة بالسقيفة). وعادة يبدأ مستوى الدور الأول من ارتفاع بين ٤م إلى ٤,٥م فوق مستوى الشارع. وسمك الحوائط يبدأ في التناقص كلما ارتفع البناء، فعلى سبيل المثال، لو أن سمك الجدار في الطابق الأرضي كان متراً، فإن تقليل سمك الجدار يكون قرابة ١٧سم في كل طابق. وبناء بيت الدرج هو أهم حدث في هذه المرحلة. وتصميم الدرج والبسطة واتجاههما يعتمد إلى حد ما على قرارات كل من المعلم والزبون. وفي معظم الحالات يوضع الدرج في الطرف الجنوبي للبيت أو في الوسط قليلاً لكي يستخدم

بيت الـدرج للتهوية والإضـاءة للغرف المجاورة.

يصـنع الـدرج من جذوع الجـندل المستـديرة التي توضع جـنباً إلى جنب كالطوف، وتدخل في أحجار بيت الدرج الجانبية. ويوضع عليها طبقة من المونة، وفي بيوت التجار توضع قطع من الرخام والأحجار المكسـوة على كل درجة من الدرجات.

ومن أبرز الأدراج المشهورة في مباني جدة التقليدية تلك التي بناها المعلم داندورة من مكة المكرمة للأفندي نصيف، إذ كانت القوائم في هذا الدرج منخفضة جداً أقل من ٤سم للقائمة و٥سم للنائمة. وصمم المعلم داندورة هذا الدرج وبـناه كالمنحدر تقريباً حتى يتمكن صاحب المنزل وضيوفه من ارتـقاء الدرج إلى شـرفة الاستقـبال الخاصة دون الترجل عن صهوات جيادهم.

ودورة الهـواء، وحجم الـفتحـات كانت مسائل رئيسية تواجه المعلم وتختبر كفاءته. وكان ذلك أيضاً مجـالاً رئيسياً للإبداع المستمر. ففي المدينة المنورة، نجد أن بيـت البـير، والجـلا، والبـاذهانج (ملاقف الهواء أو فتحات التهوية) أُعطيت أهمية خاصة في المخطط والإنشاء.

وكانت خصائص التسقيف وتقنياته تتـحدد وفقاً لمـيزانية المـالك وإمكـانية الحصول على مواد البنـاء. فعلى سبيل المثال، فإنّ ما يسمى بتسقيف الغشيم أو السـقف العادي، وهـو إقامة عوارض خشبية غير مدهونة أو مزخرفة على أبعاد من ٢٥ إلـى ٥٠سم حسـب الارتفـاع المقصود، هو أرخص أنواع الـتسقيف. والنوع الثاني من التسقيف يعرف بتسقيف الوسط، أو البسط، إذ تهذب العوارض الخشبية وتعـالج بطبقة إضافية ودهان. أما النوع الثالث من التسقيف فهو المشهور بالتسقيف المخصوص، إذ يستعمل أغلى أنواع الخشـب ويعالج بـطريقة خـاصة ويزخرف ويلون.

وفي كـل هذه الأنماط الـثلاثة من التسقيف تترك عوارض الخشب مكشوفة لتكون مـا يعرف بالضلـوع، وغالباً ما يتـفاوت سمـك السقـف من ١١ إلى ٤٥سم.

لم يكن شائـعاً عمل بطانة للسقـف فيما عدا البيوت الكبيرة التي يملكها التجار الأغنياء، مع أن الجريد في المدينة المنورة كان يـرتب علـى نمط المعـيَّن من أجـل الزخرفة، لأن السقف يرى بين الأعمدة الساندة، وكان نظام التسقيف هذا يسمى التسقـيف الشطرنجي. وفي بـداية القرن العشـرين استخدمـت أساليب تـسقيف أخرى متميزة عرفت بالتسقيف الشامي،

إذ استخدمت في البيوت الكبيرة وبيوت الأغنياء. واعتمد التسقيف الشامي على الزخرفة الكاملة من عروق خشبية قطعت وأعدت وزخرفت مسبقاً لكي تركب مع عناصر خشبية أخرى مزخرفة مكوّنة نوعاً من الأسقف المستعارة. وفي حالة تسقيف الحمام، كان يعمل حساب (المنور)، وهو فتحة مربعة أو مستديرة للتهوية وتصريف البُخَار والروائح، مع السماح للضوء الطبيعي بدخول الحجرة. وفيما بعد وفي نحو الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادي كانت هذه الفتحات تغطى بألواح زجاج أو بعدد من الأشكال الصغيرة المقببة.

والحرمدنيات (الشرفات) إن استعملت يمكن أن تبدأ من أي دور، فإن الحجر البحري أو المنقبي الدائري القطع كان يعد مسبقاً، وتوضع كل دائرة فوق الأخرى لعمل الأعمدة الساندة للشرفات. وفي بعض الحالات كانت جذوع الشجر تستخدم أعمدة، لكن الأطوال والأقطار المطلوبة نادراً ما كانت تتوافر، ولذلك كانت غالية. وكانت قوة تحمل هذه الأعمدة الخشبية محدودة بسبب الحرارة المرتفعة والرطوبة العالية، كما أن الملوحة في بعض الأماكن، مثل جدة وينبع، تتسبب في سرعة تآكل الأخشاب. وكانت المباني ذات الأعمدة الخشبية الكبيرة في حاجة لأن تطلى باستمرار بالطلاءات الزيتية التي كانت غالية ويصعب الحصول عليها.

وفي هذه المرحلة تكون تكملة أنابيب الماء (القصبات أو الشيب)؛ وهي أنابيب للماء من القماش، لجمع مياه المطر من السقف، إذ كانت أنبوبة المياه الناعمة اللياسة تؤدي إلى الصهريج الموجود في أرضية المنزل على مستوى الأساس. وهذا الأسلوب نفسه متبع بالنسبة للصرف الصحي لفضلات الحمام والمطبخ، حيث تجمع تلك الفضلات السائلة في البياره. وكانت البيارات تفرغ وتنظف بواسطة النزَّاحين، مرة كل سنتين أو ثلاث، ويعتمد ذلك على حجم البئر (البياره) وعدد أفراد الأسر.

وتتم أعمال اللياسة أثناء التقدم في أعمال البناء وفي بعض الأحيان حينما يوشك البناء على الانتهاء. وكانت عملية اللياسه تتم خارجياً أو داخلياً، ويأتي ميعادها حينما يتم المعلم الخارجة (شرفة السقف) عندها تبدأ عملية اللياسة عمودياً من أعلى إلى أسفل ويتم ذلك على هيئة أشرطة أفقية.

وتحتاج مباني الحجر المنقبي لعملية تنوير وهو الطلاء بالنورة أي الجص الأبيض، على عكس مباني الحجر

البحري التي لا تتطلب تنويراً بسبب خصائصها ومقاومتها للتآكل والعوامل الجوية.

وفي المدينة المنورة ومكة المكرمة، حيث تبنى المباني من الحجر البلدي (أحجار جبال) أو الحجر الحراوي (أحجار من الحرات)، كانت المباني تترك عارية، وكانت الطوابق الأرضية المبنية من الطين أو قطع السميسمي تحتاج إلى لياسة حتى تقاوم تأثير العواصف الرملية.

وفي بداية القرن العشرين الميلادي لم تكن هناك حاجة لأن تعد الحوائط لتوصيلات الكهرباء، فحينما دخلت الكهرباء إلى جدة حوالي سنة ١٩٥١م (١٣٧٠هـ) كانت توصيلات الكهرباء والهاتف توضع على سطح الحوائط.

ولم تكن عملية اللياسة الخارجية شائعة أيضاً في كل الحجاز، وهذا لم يؤثر في بيوت مكة المكرمة والمدينة المنورة ومبانيهما حيث كانت تبنى من الأحجار. وقد جاء في وصف بوركهارت لمكة ما يؤكد ذلك حينما لاحظ أن مكة مثل جدة فيها بيوت كثيرة من ثلاثة طوابق، وقليل من بيوت مكة بيضاء. ولكن في جدة كان لون الحجر الرمادي الغامق يفضل على الأبيض الذي يؤذي العين حينما تنعكس عليه الأشعة (١٨٢٩: ١٤٥).

وكانت مباني جدة، التي لم تليس من الخارج، سريعة التلف بسبب أن واجهاتها لا تصمد أمام ظروف المناخ القاسية. ويحرص المعلمون في مدينة جدة على معالجة السطوح الخارجية للأبنية بمادة مقاومة للعوامل الجوية. وكانت المحاولة الأولى في هذا المجال استعمال خليط من الجير والرمل ونشارة الخشب. وعلى الرغم من فوائد هذا الأسلوب داخل المباني، إلا أنه خارج المباني لم تكن له إلا فائدة قليلة، إذ كان يتشقق بمجرد أي تغير طفيف في درجة الحرارة.

وتبع ذلك أسلوب أكثر نجاحاً، تضمن استخدام طبقة أساس من الجير والرمل تترك لكي تتصلب لمدة يومين، ثم تغطى بطبقة أخرى من الجير والأحجار المسحوقة، وأحياناً نورة زرقاء (زهره)، إذ تعطي المباني لوناً يميل إلى الزرقة. وفي بداية القرن العشرين الميلادي أي في العشرينيات من أوائل القرن الرابع عشر الهجري تحسنت إجراءات حماية المباني من العوامل الجوية، فبالإضافة إلى الطبقتين السابقتين فإن المباني كانت تعالج بطبقة أولية من خليط من الرمل والجير (مونه) لملء الفراغات والحفر، وطبقة نهائية من خليط يعد في أفران تحت الأرض لبضعة أيام ويتكون من الغراء

الذي كان معروفاً في بناء القوارب، والأحجار المسحوقة (القاحود) ومونة الجير والرمال الناعمة.

وفي المدينة المنورة، استخدم نوع آخر من خليط عرف باسم البنجه السوده وهو خليط من الرمال البركانية والطين.

وفي المناطق الرطبة مثل جدة وينبع فإن خلط الطبشور مع الليـاسة أمر لا يمكن تحاشيه، وسقوط اللياسة أو التقشير شاع في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكان كل ذلك في جميع أنواع اللياسة، ومن ثم كان عمل طبقات لياسة عمل منتظم للنوّارة. ويطلق على عملية اللياسة الداخلية بالنورة (الترخيم) ويطلق على عامل التلييس اسم النوّار والمليس والنحات أو النقاش والاسم الأول يطلق على أي عمل يقوم به أحد الثلاثة الآخرين من دون تغيير. وبعض النقاشين كانوا خبراء في إعداد أحجار الواجهات على الموقع، بينما كان نحاتون آخرون يقومون بذلك في ورشهم الخاصة، حيث يعدون الحجر المنحوت وبلاطات الجبس التي يشتريها المعلمون والنوارة ثم يتم استعمالها في الموقع. أما أحجار الزينة الملونة فكان النوار هو الذي يعدها مستخدماً النورة الزرقاء وبعض الأطياف والألوان والأصباغ.

وفي الستينيات من القرن العشرين، وأواخر القرن الرابع عشر الهجري، أصبح النوار أكثر مغامرة، فكان يؤدي عمله في الماضي وفق نظام معين، إذ يبدأ عمله بعد أن يرفع المعلم يديه ويبدأ بالتلييس والدهان، لكنه بعد ذلك بدأ يمارس تجاربه في أشكال من مخيلته؛ فعلى سبيل المثال بدأ القوس يرى مزخرفاً بتيجان أعمدة كورنثية وأيونية أو دورية، وطعم بزخارف هندية وغيرها أو بالشعارات الخاصة المبتكرة، وهذا التطور أرضى الأذواق العامة وكثف التنافس الإبداعي بين النَّوَّارة.

أما تركيب الأبواب والرواشين والشيشان فيتم بعد الانتهاء من تلييس الجدران من الداخل والخارج، ويحين عندئذ إقامة احتفال خاص، لأن تركيب الرواشين هو في الحقيقة إعلان عن اكتمال البيت.

والرواشين الكبيرة المصنوعة من خشب الساج الهندي أو الخشب الجاوي كانت مكلفة للغاية وأصحاب الأبنية الأثرياء فقط هم القادرون على دفع تكلفتها. ويُعد الخشب الهندي أحسن الأخشاب لبناء الرواشين. أما الأسر المتواضعة فتستخدم في بناء الرواشين أخشاباً محلية كأخشاب السيسم أو النخيل.

والروشان هو مركز الحياة العائلية لا سيما لصغار السن من أفراد العائلة، حيث يجلسون هناك يمارسون ألعاب التسلية المختلفة ويتناولون بعض المشروبات. ويجلسون يراقبون الحركة والأنشطة في الشوارع وغير ذلك. وفي العادة هناك دكة داخل الروشان تغطيها مرتبة، وثمة تكيات ومساند يمكن أن تتسع لنوم شابين بالغين.

وكان هناك نمطان واضحان من الرواشين: التركية والمصرية (وتعرف المصرية بالمشربية). وكان النمط التركي بسيطاً في الأزمنة الأولى وهو إطارات نافذة مثل القفص (قفص خشبي له ثلاثة جوانب) وليس بها أي أجزاء متحركة. وبعض الرواشين من هذا النمط تصنع أعلاه مظلة لتوفر الظل وتخفف الحرارة داخل الروشان. وبعد أن استقر معلمون من المدينة المنورة في جدة ومكة (سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٥م)، أحضروا معهم النمط المصري إلى النجارين المحليين في هاتين المدينتين. ويمتاز النمط المصري بأنه مكون من قطع الخشب الصغيرة المقطوعة بمهارة وشكلها منسق وتحتوي على عدد كبير من الضوابط والشيشان التي تدخل في تركيب الرواشين. وكانت الرواشين مكونة من صفين أو أربعة صفوف من الشيشان التي كانت تطوى في اتجاهات مختلفة، وعن طريق طي الشيشان يمكن التحكم في الضوء والهواء الذي يدخل المنزل، أما الأجزاء غير المتحركة من الروشان فكانت تصنع من قطع صغيرة من الخشب.

والرواشين المثالية تنقسم إلى ثلاثة أجزاء رئيسية: القاعدة وتسمى الأرضيه، والجزء الأوسط ويسمى الجلسه، والجزء العلوي ويعرف بالتاج (أو البرنيطه أو الرفرف).

والجزء المنخفض من أرضية الروشان هو القاعدة الداعمة التي تبرز من الحائط ويثبت عليها الروشان. وهذه القاعدة مصمتة ليست ذات ثقوب لتحافظ على خصوصية مستخدمي الروشان، وهذا الجزء يوازي النصف الأسفل من جسم الإنسان. أما الجزء الرئيسي من الروشان، فكان الأوسط منه مغطى بنوافذ أو أعمال خشبية تعرف بالمنجور (خشب خرط) يسمح بالرؤية من داخل الروشان إلى الخارج. والجزء العلوي من الروشان مصمت ويبرز للخارج، ليوفر الظل ويحمي منطقة الجلوس الوسطى من المؤثرات المناخية كأشعة الشمس والحرارة.

وكان من الشائع في البيوت الكبيرة أن تكون الرواشين متصلة عمودياً بإطار

خشبي يسمى الحزام يغطي كل واجهة المنزل. وزخرفة كل هذه الأجزاء تعتمد بلا شك على مقدرة الزبون، وعلى نوع الخشب المستخدم، وعلى مهارة النجارين. فعلى سبيل المثال الأجزاء السفلى من الروشان يمكن زخرفتها بكثافة بالمقرنصات، أو ببساطة مثل تلك الإطارات الخشبية المستطيلة الخالية من زخارف. وعموماً فإن كل العناصر الخشبية الباقية في بيوت الحجاز حتى يومنا هذا هي أنماط هندسية ذات نماذج زخرفية نباتية محفورة. ولإقامة الرواشين، فإن بكرات كانت تقام على قمة البيت وتدلى منها حبال إنجليزية طويلة وقوية إلى الأرض حيث تشبك الرواشين من أركانها بخطاطيف (رشاقات) ويربط أسفل الروشان بحبلين عند كل جانب ويشترك رجلان في ضبط عملية الرفع حتى لا يحدث أي تلفيات للروشان أو لحائط المبنى، وحينما يصل الروشان إلى الفتحة المعدة له يتسلمه مساعدا النجار لتثبيته في العوارض الخشبية البارزة والمدفونة بعمق عند قاعدة الفتحة المعدة للروشان.

إن الاهتمام الذي أولاه الحجازيون لمداخل البيوت والبوابات الرئيسية أدى للعناية بها بطريقة خاصة من قبل الزبائن والحرفيين. فالأبواب الأمامية عادة كان لها ضعف الارتفاع بالأحجار المنسقة والزخارف الحجرية، وكانت تركب بها الأبواب الخشبية الكبيرة حيث كان لها مصراعان، الأيمن منهما به باب أصغر أو مدخل يعرف بالخوخه وكانت الأبواب ذات المصراعين ثقيلة نوعاً ما مما تطلب إطاراً قوياً لتثبيتها، وكانت هذه الأبواب لا تفتح إلا لمرور الأحمال الثقيلة، بينما كانت الخوخه هي المدخل الرئيسي إلى المنزل. وخلال الخمسينيات من القرن العشرين كانت هذه الأبواب مفضلة وأصبحت ذات دلالة على المكانة، كما أصبحت الأروقة ذات الأعمدة أيضاً ظاهرة محببة في مداخل البيوت، وهذه أتاحت للمعلم والنجار خبرة ومعرفة في مجال التكوينات الخشبية والوسائل المختلفة في دعمها.

وأعلى جزء في المبنى، وتشغله عادة الخارجه، كان يزين بالعرايس (الدُّمَى) وهذه الحلية كانت تصنع من كتل المرجان المشكلة والمليسة ضد العوامل الجوية لحمايتها. وكانت معظم مساجد ومنازل الحجاز تتوج بالطريقة نفسها على مدى المائتي سنة الماضية على الأقل.

وفي بيوت التجار الكبيرة كانت الأنماط نفسها تتوج الأجزاء السفلية

والعلوية من الـروشان (التاج والبرنيطه والمضاعف) كما كـانت تتوج الشرفات وكذلـك فواصل الـشرفات والحـواجز الجدارية على السطح.

وكان من المهم جداً لكل من الزبون والمعلم أن يكون البيت قد انتهى بناؤه قبل بداية مـوسم الحج والأعيـاد والمناسبات المحلـية الأخـرى؛ لأن معـنى ذلـك أن صاحب البيت يستطيع أن يستقبل عدداً كبيراً من الضيوف الذين يتوقع زيارتهم خلال هذه المناسبات، وكذلك إمكانية تأجير البيت للحجاج مقابل مبلغ جيد من المال يعوض بعض المصاريف التي أنفقها صاحب البيت في البناء. كما أن انتقال العائلة إلى المنزل الجديد كان مناسبة سعـيدة تزداد أهميتها عندما تتزامن مع حدث سعيد مثل الزواج، أو عيد الفطر أو عيد الأضحى. وتسليم البيـت بالنسبة لـلمعلم يـعني راحة من مسؤولية أساسية يستطيع بعدها أن يؤدي حجه أو يشارك في احتفالات العيد، ويعني التسليم أيضاً أن تسلّم الأجرة أو ما تبقى منها مما يتيح له أن يستـفيد منها في هذه المناسبات الخاصة.

وتسليم البيت لصاحبه كـان مناسبة سعيدة للمجاورة الـسكنية. فبعد وقت طويل (من سنة إلى أربع سنوات) يأتي وقت تسليم البيت للعائلة. وكان صاحب المنزل عادةً يجـمع عدداً من كبار السن في الحارة ليشهدوا عملية التمتير (قياس بالمتر) المبدئي، أي قياس المنزل والموافقة على المسـاحات. ويقوم المعلم وبـعض مساعـديه ومعهم الزبـون وبعض أفراد المجاورة السكنية (الحارة) بأخذ القياسات حجـرة حجرة، ويـوثقـون القيـاسات لمراجعتها ومعرفة مدى مطابقتها للاتفاق والعقد المبدئي الشفـهي أو المكتوب بين المعلم والزبون.

ولو كانت نتائج التمتير (القياسات) مرضية للزبون، فإن الوثيقة التي سجلت عليها القياسات تختـم من المعلم وتوقع من الزبون وشاهدين على الأقل. وتعد هذه الوثيقة بذلك إخلاء مسؤولية المعلم وتقدم لـلقاضي المحـلي، برهانـاً على اكتمال بناء البيت وإرضاء للزبون، وتعد تسجيلاً لحيازة البيت بواسطة الزبون. ومن ناحية أخرى، لو أن الـزبون أبدى رغبة في إجراء أي تعديـلات، فإن مهلة من الزمن، يحدد طولها تبعاً لهذه التعديلات وما تستغرقه، تعطى للمعلم ليقوم بإجراء اللازم، وهذا الموقف غالـباً ما ينشأ في حالات خاصة، كأن يكون الزبون بحاراً أو في رحلة ولم تتوافر له الفرصة لمتابعة عملية البناء مرة على الأقل في كل مرحلة من مراحل بناء البيت المهمة.

وتنتهي هذه الحلقة الأخيرة بوليمة في البيت الجديد يقيمها صاحب البيت ويدعو إليها عمدة الحارة وبعض البارزين والأعيان المقيمين بالمنطقة والجيران، والمعلم وبعض معاونيه من فريق البناء. ولا يسمح للضيوف بالتجول في المنزل حتى ولو لم يكن بالبيت نساء. ويصبح البيت مسكناً بمجرد تسلّم صاحبه له ويرتبط بالبيت اسم العائلة. وتعد الطوابق العليا للبيت (حرم) وتكتسب صفة الخصوصية الشديدة، وتكون مقصورة على رجل البيت وأهله من أفراد العائلة، وتبعاً لذلك فإن دخولها محظور على الآخرين.

وفيما يتعلق بتوسعة البيت فمن المتوقع بعد عدة سنوات من سكن البيت والعيش به، أن يتزايد عدد أفراد العائلة القاطنة تبعاً لزواج الأبناء أو لسكن أحد أعضاء العائلة المسنين. وفي هذه الحالات تصبح توسعة البيت ضرورية، وقد تأخذ التوسعة اتجاهاً رأسياً بإضافة أدوار جديدة، أو قد تأخذ اتجاهاً أفقياً. وفي كلتا الحالتين تصبح خدمات المعلم ضرورية، وقد يقوم بها المعلم الأصلي الذي قام ببناء البيت أو معلم آخر من رابطة البنائين.

وفي بداية القرن التاسع عشر الميلادي كان يؤخذ في الحسبان عند بناء البيت التوسعات المستقبلية المتوقعة. وعلى سبيل المثال كانت أرض البناء التي تشترى أكبر من تلك المساحة المطلوبة لبناء البيت. وكانت العناصر الإنشائية تقام لتتحمل أكثر من الأحمال التي من المفروض أن تتحملها وقت البناء، وذلك من أجل الامتداد الرأسي.

إن الامتدادات الرأسية تتطلب تغييرات أساسية في بنية البيت تبدأ بتقوية الأساسات والطابق الأرضي. وكانت الأساسات تقوى بحفر خندق حول البيت لوضع أعمدة أو عوارض خشبية كبيرة وأحجار، وتقوية الطابق الأرضي تتم إما بوضع طبقة داعمة من الأحجار حول قاعدة البيت (جدار إضافي حامل) أو تدعيم الجدران بحجر بحري كبير أو أي نوع من الأحجار المتوافرة في البيئة المحلية على هيئة دعامات حجرية. وارتفاع الأسقف في الامتدادات الرأسية يكون أقل من ارتفاع الحجرة في الأجزاء الأصلية من البيت، وكذلك الحال بالنسبة لأحجام الرواشين، وذلك من أجل تقليل الأحمال الإضافية على المبنى باستخدام شيشان أخف.

وفي المناطق التي تلتصق فيها الأبنية بعضها ببعض بحوائط حاملة وجدران حاجزة مشتركة، فإن إجراءات الامتداد

العلوي أو الرأسي السابقة تصبح غير ضرورية، إذ يمكن للتوسعة الرأسية أن تتم ببساطة عن طريق توزيع أوزان الأدوار الإضافية على صف المباني كله، فهذه التوسعة يمكن إجراؤها لمستوى مأمون على أساس طاقة الحمل المشتركة للمباني والامتدادات الموجودة من قبل.

وتستوجب التوسعة الرأسية في المباني المتلاصقة قيام شيخ المعلمين بفحص البيت المطلوب تعليته قبل أن يمنح التصريح بذلك. ويعد الحصول على مثل هذا التصريح إلزامياً لأصحاب البيوت قبل الشروع في إجراء أية تغييرات في بيوتهم.

وعلى الرغم من أن اجتماعات عامة كانت تعقد دائماً في مثل هذه الحالات قبل منح تصريحات التوسعة، وكان يحضرها رئيس رابطة البنائين وعمدة الحارة وأصحاب البيوت المجاورة، إلا أن هذا النظام المشهور (حمِّل على جارك) كان يتولد عنه نزاعات بين أصحاب البيوت الذين لم يمنحوا تصريحات لتوسعة مبانيهم وبين أولئك الذين منحوا مثل هذه التصريحات من قبل.

وفي منتصف القرن الرابع عشر الهجري أدى عناد بعض أصحاب البيوت وعصيانهم لأوامر رئيس رابطة البناء، إلى انهيار مبان عديدة في المدينة القديمة وسجن بعض أعضاء العائلات الشهيرة الذين خالفوا القانون بتوسعة مبانيهم. ومن ناحية أخرى، فإن التوسع الأفقي للبيوت كان محدوداً جداً في معظم مدن الحجاز بسبب النقص الشديد في الأراضي، وخصوصاً مدينة جدة، قبل إزالة أسوارها، وفي مكة المكرمة، بسبب طبوغرافيتها والرغبة في القرب من المسجد الحرام.

وقد أدت إزالة أسوار جدة سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٧م) إلى إزالة الضغوط على المنطقة المركزية من المدينة، مما أتاح إمكانات التوسع الأفقي مع استمرار ارتفاع أسعار الأراضي المتوافرة في هذه الأماكن، فكانت هذه الأراضي مجرد بديل مفتوح للأغنياء من التجار.

إن بناء ملاحق للأبنية الموجودة لم يكن عملاً صعباً إذا ما قورن بالتوسعة الرأسية، فالمعلم مرتبط بمساحة الأرض الإضافية وموقعها، ويتطلب الأمر منه أن يلقي نظرة ليرى موضع الاتصال بالمبنى الأساسي في إطار استمرارية تحقيق متطلبات الخصوصية. وفي بعض الحالات النادرة، حيث تتوافر الأراضي للتوسع، غالباً ما يفصل بين المبنى الأصلي والإضافي ممر أو شارع، وفي حالة الشارع كان يمكن أن يتم الاتصال

مع البيت الجديد بواسطة مصطبه أو جسر، يرتفع عن مستوى سطح الشارع ٣م إلى ٦م. وإذا تعذر بناء جسر، فإن المبنى الملحق يكون له مدخل ومنافع خاصة به ليصبح بيتاً صغيراً مستقلاً.

وخلال السنوات الأولى من القرن الثامن عشر الميلادي حينما كانت البيوت حديثة البناء فتعتريها التشققات أو الانبعاجات، كانت تهجر وتترك حتى تنهار، أو تدعم بدعامات وتملأ الشقوق بالأحجار الصغيرة والمونة. وطبيعي ألا يستمر بقاء هذه البيوت طويلاً بعد هذه العملية. وخلال السنين اكتسب المعلمون خبرة نتيجة التعامل مع هذه المشكلة. ووجدوا أنه من الممكن رفع المبنى عن الأرض جزئياً أو كلياً لتصحيح الأساسات تحت البناء، ثم إنزال البيت ثانية أو إزالة الأحجار المنبعجة وتغييرها بأخرى، وتعرف هذه العملية بالتلاقيط.

ويعتمد هذا الأسلوب على الاستبدال المؤقت لأي عنصر من عناصر الهيكل الإنشائي، سواء أكان ذلك حائطاً أم عموداً أم قوساً بأعمدة خشبية قوية. ومن الواضح أنه ليس لدى كل معلم الشجاعة للقيام بمثل هذا العمل، فقليل منهم يتقنون هذا الفن. وعلى سبيل المثال لم يكن بجدة سوى معلمَيْن أو ثلاثة يعدون خبراء في إجراء هذه العملية، مما زاد الطلب على خدماتهم وزاد في مكانتهم الاجتماعية. وعدد قليل من المعلمين كانوا يسمحون لسكان الأدوار العليا بممارسة حياتهم العادية في الوقت الذي يعلقون فيه البيت، ولا شك أن مثل هؤلاء المعلمين كانوا أكثر من مجرد خبراء في هذه الطريقة. يقول المعلم كركشان: «ليس كل بيت يمكن أن يكون معلقاً تماماً، ولكن إذا حدث وعلق بيت فإنني تعودت أن أنام تحت البيت، والبيت معلق في الهواء. وأظل أنام كل مساء حتى يثبت البيت لكي أجعل الناس يشعرون بالأمن. لأنهم يعرفون أنني ما كنت لأجازف بحياتي وعائلتي وعمالي لأي انتصار أو شهرة، وكنت وقت إزالة الحوائط من الدور الأرضي، أقف هناك تحت البناء، بينما عمالي يهربون من الموقع، وكنت أقف هناك أيضاً حينما يزيلون السقالات والنساء كنَّ يصرخن ويصحن «الحقوا هذا المعلم الخبل» أي أنقذوا ذلك المعلم المجنون. وبعد سنوات قليلة أيقن كل واحد في المدينة بمهارتي في العمل، وأنني أستطيع بوضع يدي على جدار المبنى أو الاستناد إليه أن أقرر أن هذا الحائط سوف يتصدع (مقابلة شخصة: جدة ١٩٩٠م).

أنماط البناء في القرى الحجازية

يسكن أطراف المدن في الحجاز غالباً المهاجرون إليها من القرى المجاورة والبعيدة من ذوي الدخل المحدود والذين لم يألفوا سكنى المدن، ويتخذون مساكنهم من الخيام، ثم من رجوم من الحجارة إلى ارتفاع متر واحد، ثم تسقف بالقش على شكل شبه هرمي، ثم تتطور الحجرات إلى صناديق هرمية من الصاج أو الخشب، ويراعى في كل منها وجود مكان لأواني الماء، كالأزيار والقلال والخزانات المعدنية وأواني المطبخ، وكلما كان المكان قريباً من المدينة أضيف المرحاض للضرورات وأضيف المروش. وللمرحاض فتحة خارجية عند نهاية امتداد مجراه الذي يصل إلى مترين طولاً ومتر عمقاً، ولا يختلط به الماء ليسهل فيما بعد حرقه أو نزحه. ويتقدم الحجرة فناء صغير للجلوس والنوم ليلاً، وربما استفيد من الساحات المجاورة للمنزل.

والمروش مهم في حياة القرويين، ولابد أن يكون مجانباً لمرور سكان المنزل لاعتقادهم بنجاسته، إذ يُتَطهّر فيه، وأكثر ما يستخدم المروش النساء، والرجال في يوم الجمعة.

ثم تطورت هذه المباني والحجرات إلى بناء حجرتين من الحجر أو الطوب يفصل بينهما ممر تستخدمه الأسرة نهاراً غرفة معيشة، أما الحجرتان، فإحداهما للرجال وضيوفهم، والأخرى للعائلة، وقد تطورت هذه المنازل بعد انتشار الأسمنت وتغير وجه الحياة وحركتها السريعة.

وفي القرى المجاورة لمكة يغلب على الدور والمباني طابع اتساع الفناء لسهولة امتلاك الأرض، مما يتيح إضافة غرف أخرى في المستقبل، وفي وسط الفناءين حجرة واحدة بجوارها مظلة أو سقيفة تستعمل للطبخ والماء. وفي ركن الفناء يقام حمام للضيوف وآخر للنساء وأهل المنزل، وللفناء باب للرجال وآخر للنساء، وتزرع به بعض الأشجار والنباتات، وبخاصة الليمون والنخيل والفل والورد.

وبشكل عام ليس في أطراف هذه المدن وضواحيها من المباني ما يلفت الانتباه لأن الدور خاضعة للتغيير الدائم، إلا أن المنطقة الجبلية وقراها فيما جاور المدينة المنورة والطائف، تكون البيوت الريفية فيها من الحجارة، ويستخدم لسقوفها خشب العرعر وجذوع النخل، وتغطى بالجريد أو مسطح الحجارة المستطيلة الخفيفة، ويبدعون في أبوابها الخشبية نقشاً ومتانة، إذ تشكل العتبة ومفتاحها تقنية في تبادل أسنان المفتاح تحاكي الأرقام السرية في الأقفال الحديثة.

وفي المنطقة الجبلية الباردة تبنى غرفة واسعة أمامها فناء صغير به مظلة، وينفذ من داخل هذه الغرفة عبر مدخل يقل عن متر مربع إلى غرفة تسمى مردومه تستعمل مستودعاً للثمار والبذور والأشياء الثمينة، وتقوم بدور الثلاجة. ويتم تنظيف الغرفة سنوياً، ذلك أنها لا تصلح للجلوس بسبب التهوية القليلة والظلام، أما تنظيفها فيتم بوضع النباتات الحارقة (الحريفة) وذات الرائحة النفاذة كالفلفل، فتموت عندئذٍ الحشرات. وعندما يحين موعد الحصاد تزال هذه النباتات، وقد فقدت خاصيتها وأماتت كل الحشرات فتكنس الغرفة وتُهيأ للاستخدام.

وفي القرى العريقة، مثل قرى وادي الصفراء وينبع النخل، تبنى المساكن على شكل مجمعات على تلال وربوات، لتحقيق الحماية من السيول الجارفة واكتشاف المهاجمين وتأصيل التقارب وتحقيق المتعة، إذ إن الأزقة ومساحات الدور تضيق وتقل مداخلها فتسهل السيطرة عليها وحمايتها. والدور غرف صغيرة، وبعضها من أدوار، لضيق الرقعة السكنية والتماس الهواء عبر الارتفاع، وازدياد عدد أفراد الأسرة، وفي كل منزل مكان مخصص للطبخ والماء والحمام (المروش) وغرف تناسب عدد أفراد الأسرة، وللحجرات مظلات وشبابيك

مخزن تقليدي للغلال داخل صخرة (الطائف)

ضيقة. واستخدام المراحيض يكون في أضيق الحدود بل قد لا تتوافر في كل البيوت، ويبدو أن السكان يرتبون هذه المسألة، فالرجال يكونون خارج المنازل أغلب ساعات النهار إن لم تكن كلها، وفي الحقول والشعاب متسع لقضاء حاجتهم، أما النساء فغالباً ما يكون الليل ساتراً لخروجهن في جماعات إلى الأماكن القريبة والمناسبة لقضاء حاجتهن.

وللقرية سوق على شكل مربع أو مستطيل تكون الدكاكين في جهتين متقابلتين منه. وفي الساحة التي تتوسطها تعرض بضائع الجملة من حبوب وتمور ومواش وغيرها مما يكون في الحراج. وينتعش السوق في أيام محددة كيوم الجمعة.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذه القرى عمارة الأفلاج، وهي الممرات المائية للعيون، وهي قنوات تمتد على أعماق مختلفة وأبعاد قد تتجاوز العشرة فراسخ ولا أحد يعرف تأريخ نشأتها، مما دفع العامة إلى نسبتها إلى جن سليمان، وذلك لأنهم يعدونها من المعجزات، وهذه القنوات تضيق وتتسع، ومنها ما تكون جدرانه من الصخر (القف) ومنها ما يكون من البناء الحجري، ويعرف مسار هذا المجرى من خلال فتحات (خرزات) كفتحات الآبار، ولكنها مغطاة بطبقات رملية، تفتح أثناء صيانة الفلج (القناة أو المجرى) لنزول العمال وتوفير التهوية، وعند مدخل القرية يخرج الماء إلى السطح، فيبنى حوله جدران ومرافق للوراد من الناس والمواشي، ويسمى هذا المكان الشريعه إذ يشرع فيه الجميع من أجل السقيا، وقد يستحم به، ثم يستمر الماء في تدفقه عبر قناة مغطاة تسمى الدبل أو القصبه ولها فتحات عند مدخل كل حقل أو مزرعة لامدادها بماء الري.

وعلى هذا المسار تقام المساجد، ولها فتحات مدرجة تؤدي إلى القناة، ومنها يتم الوضوء أو الاستحمام، أما الفتحات الأخرى التي لا تقام عليها مساجد فقد صممت بحيث ينزل إليها عبر نفق مدرج بحيث لا يرى من يكون داخل هذه الفتحة من خارجها، ويستخدم القرويون هذه الفتحات للاستحمام، ذلك أنه إذا كان داخلها شخص فإنه يضع ثيابه أو شيئاً منها عند المدخل فلا يفاجأ بدخول آخرين.

أما مدرجات الحقول فإنها تبنى من الحجارة، ولها مداخل للسيل ومخارج لتصريف الفائض وقد بنيت المدرجات بطريقة لا تدع المياه الجارفة تحدث بالأرض شقوقاً، ولكل حقل حضار (سور) من

الحجارة يحيط به لمنع المواشي، ومن خلال هذا الحضار أو السور الحجري توجد منافذ تتصل بمجاري جافة تسوق ماء المطر إلى داخل الحقل.

وللآبار المطوية بالحجارة والسواني طرق جرت الإشارة إليها في مجلد الزراعة.

ولأهمية الطرق فيما بين الحرمين الشريفين عمدت الدولة العثمانية إلى بناء القلاع والحصون والأسبلة، وكلها آلت إلى الدمار ولم يبق إلا آثارها، والأسبلة تكون غالباً من غرفة واحدة بها خزان مياه مبني من الحجر المجصص بطريقة لا تعرض مياهه للتلوث، وقد بنى بعض المحسنين إلى جوار بعض هذه الأسبلة مظلات يقيل بها عابرو السبيل حين استفادتهم من ماء السبيل.

طائفة البنائين

كانت طائفة البناء الحجازية التقليدية بمثابة مجتمع داخل المجتمع الحجازي، له عاداته وتقاليده وقوانينه التي يحترمها أفراد الطائفة. وكان لمنسوبي الطائفة مراتب أيضاً، بحيث كان كبيرها هو شيخ المعلمين، وكان شيخ المعلمين ينتخب من بين درجة المعلمين بواسطة منسوبي الطائفة من جميع الفئات، وذلك بناء على سمعته الشخصية وكفاءته المهنية، وغالباً ما يكون من أقدم معلمي البناء في المنطقة. وكان شيخ المعلمين يرأس عدداً من المجموعات تتكون من العمال والصبيان أو الصنايعيه، أي التلاميذ، بالإضافة إلى المعلم الذي يرأس كل مجموعة.

أما المعلمون مِمَن كانوا يرأسون مجموعات بناء صغيرة فكانوا طبقات، يتحدد حجمها حسب حجم المشروعات التي يقومون بتنفيذها، ومستوى العملاء الذين يتعاملون معهم. وكانت منزلة المعلم في طائفة البناء تؤثر في وضعه الاجتماعي في الحارة التي يسكن فيها، والمنطقة التي يعمل بها. ويؤثر كل هذا بمجمله على الأجر الذي يتقاضاه المعلم لقاء جهده في إنجاز المشروعات العمرانية.

يتكون فريق البناء التقليدي من معلم يدعوه العمال الريس لأنه يرأس العمال، ونحات (قاطع الحجر)، وقراري يقوم بتكسير الحجر وفق طلب البنّاء ليكون الحجر ملائماً للمكان الذي يوضع فيه من الجدار، وسمي قرارياً لأنه يصوغ الحجر بمقدار موضعه وقراره في الجدار. ومروج وهو حامل الحجر، وطيَّان وهو حامل الطين وخلاط وهو عامل خلط

البناء بالآجر

الملاط، ومناول وهو عامل حمل الحجارة من أسفل إلى أعلى، وفلاتي وهو مساعد البناء كما يعرف بالمنطقة الغربية، وتحدد خبرة كل عامل وكفاءته مكانته في الفريق ودرجة الاعتماد عليه.

وعلى الرغم من أن الأجر اليومي للتخصصات المختلفة من عمال طائفة البناء كان يحدده شيخ الطائفة، إلا أن معلم كل فريق كان له الحق في تغيير هذا الأجر، حسبما يتراءى له من كفاءة العمال ومهارتهم وخبراتهم وأقدميتهم. مثال ذلك أنه في بعض مدن الحجاز، مثل جدة، كان الحجر البحري أو المشّاط (أحجار مرجانية خشنة جداً) صعب القطع والتجهيز، وكان يتطلب عُمالاً ذوي قدرة جسمانية فائقة، ومهارة فنية

فريق البناء التقليدي

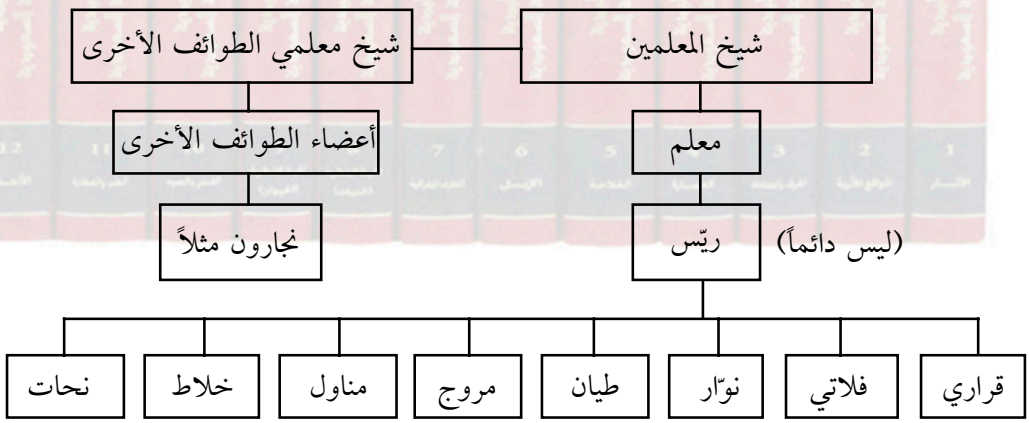

عالية، إذ كان يستغرق العامل يوماً كاملاً لقطع ثلاثة أحجار، ويوماً آخر لرص أربعة منها. لذلك فإن العمال القرارية الذين تخصصوا ومهروا في مثل هذا العمل، كانوا يتقاضون أجوراً أعلى من بقية زملائهم أو أقرانهم الأقل قدرة. وكان هذا هو الحال أيضاً في مكة المكرمة والمدينة المنورة بالنسبة لقاطعي الحجر الجبلي، وهو من البازلت شديد الصلابة.

يختار المعلم عادة عمال البناء الذين يود ضمهم إلى فريقه وهم في سن مبكرة، ويعنى بأبنائه عناية خاصة حتى يتعلموا أسرار الصنعة منه ويتوارثوها عنه. وكان لكل معلم أسلوبه الخاص في البناء، وفي التعامل مع أفراد فريقه، ليكتسبوا المهارات الخاصة ويتقنوا صنعة البناء. ففي مدينة جدة مثلاً، كان أشهر النجارين من عائلة عطيه وأشهر المرممين من عائلة الكركشان، وهكذا.

ويستمر العامل في تخصصه لمدة طويلة من الزمن قبل أن يصبح رئيس عمال. فمثلاً في حالة القراري قد تصل هذه المدة إلى ١٠ سنوات، قبل أن يقرر المعلم أن يرفعه إلى رتبة رئيس عمال أو ريس، وبالتالي يرتفع أجره. وكان من الطبيعي أن يحاول كل عامل أن يتعلم الكثير ويحاول إتقان مهنته حتى يتسنى له أن يرتفع إلى الرتبة التي تليها ويزداد أجره ومكانته في طائفة البنائين، وفي مجتمع حارته.

والعمال عادة يحترمون المعلم أو رئيس الفريق، الذي هو في منزلة أبيهم، ويحاولون التجاوب معه ومع أفكاره وأساليبه في العمل قدر المستطاع. ولا توجد في المهنة حالة لعامل ترقّى من مرتبة المناول إلى مرتبة المعلم مثلاً، من غير المرور بمهنة الخلاّط والطيّان والقراري.

وعندما يرى معلم الفريق أن أحد العمال قد وصل إلى مرتبة عالية من حيث الخبرة والمهارة والطاعة والأخلاق، وأنه يمكنه الاعتماد عليه في تحمل مسؤولية إنشاء البيت، أو إدارة الموقع، فإنه يعهد إلى ذلك العامل ببعض هذه المسؤوليات بالتدريج، مع مراقبته عن كثب. ويرقّى العامل في هذه الحالة إلى ريس.

وعندما تزداد كفاية الريس، ويرى المعلم أن هذا الريس يستحق مرتبة معلم، فإنه يرفع طلباً إلى شيخ معلمي طائفة البنائين لترقيته إلى درجة المعلم. ويذكر معلمو البناء أنه في منتصف التسعينيات من القرن الرابع عشر الهجري بدأت هذه التقاليد في الانحلال، إلى حد أن بعض

القراريين نصبوا أنفسهم معلمي بناء من دون استئذان شيخ المعلمين أو رئيسهم المباشر.

وكان لكل منطقة، بل ولكل مدينة، مجموعة بنائين ومعلمين مرموقين وذوي سمعة طيبة. ففي أواخر العصر الذهبي للعمارة الحجازية التقليدية، وهي منتصف القرن العشرين، كان في جدة وحدها سبعة معلمين، وفي مكة المكرمة خمسة، وفي المدينة المنورة أربعة، وفي ينبع اثنان.

وكانت أعلى سلطة لدى طائفة معلمي البناء تتمثل في شيخ الطائفة (كبير المعلمين) أو شيخ المعلمين). وكان لخبرته وحكمته وأمانته وإخلاصه وقدرته على الفصل في أمور أفراد الطائفة، أكبر الأثر في انتخابه رئيساً للطائفة. كما ينبغي أن يتحلى بقوة الشخصية التي تساعده في التعامل مع الجهات الحكومية والسلطات، إذ كان عليه أن يرفع شكاوى وطلبات أفراد الطائفة إلى هذه الجهات، كلما استدعى الأمر ذلك. كذلك كان عليه أن يكون ملماً بجميع قوانين البناء وأصول المهنة، حتى يتمكن من البت في الأمور اليومية لأفراد الطائفة.

إضافة إلى سلطته على أفراد طائفته فإن شيخ المعلمين يقوم بمهمة إدارة التخطيط في المدينة. فقد كانت لديه السلطة لهدم البيوت المخالفة لأعراف البناء أو المتعدية على حدود الملكية الفردية. كما كان بإمكانه تغيير بعض هذه الأعراف، كلما استدعت الحاجة ذلك، أو نتيجة اختلاف حاجات ومتطلبات أصحاب الأراضي.

وأثناء الحكم العثماني بالحجاز (من أوائل القرن الثامن عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر) كان المعلمون يلقبون بأصحاب الخبرة والمعرفة. وكانوا يستدعون لاستشارتهم في حالات النزاع بين أصحاب البيوت والأراضي والبت في نزاعاتهم، أو فيما يختص بجرح الخصوصية أو توسعة البيت، وغير ذلك من شؤون البناء وقوانينه.

وكان معلم البناء مسؤولاً مسؤولية تامة عن سلامة البناء الذي يعمل فيه، بل وسلامة المباني المجاورة أو الجدران المشتركة. كما تشمل مسؤولياته أيضاً الإشراف على تصرفات العمال الذين يعملون تحت إمرته، سواء في الموقع أو في الحارة. وينبغي عليه إنهاء الأعمال المطلوبة منه في الوقت الذي حدده للعميل، واتباع التقاليد والعادات الاجتماعية المتعلقة بالبناء، مثل عدم فتح باب أو شباك في مواجهة بيت الجار. كما أنه يظل مسؤولاً عن سلامة المبنى

بعد انتهائه، وعليه أن يرمم البناء بعد أن يريح أو يوغز أو يميل وعليه أيضاً تعليق المبنى، أي رفعه وإصلاح أساساته حتى لو استعان بخبرة معلم آخر.

وكان على العامل أو الحرفي الذي يود الانضمام إلى نقابة معلمي البناء أن يقدم نفسه إلى شيخ الطائفة. وكان يصحب الحرفي الجديد أحد الحرفيين المخضرمين من أتباع هذه الطائفة ليوصي بقبوله عضواً في الطائفة، ويتولى الحديث عن مزايا هذا الحرفي وأخلاقه وفضائله. وتتطلب هذه المرحلة الابتدائية من التعريف حضور عدد معين من أفراد الطائفة الذين يقوم المعلم باستشارتهم بشأن انضمام هذا الحرفي الجديد، ويسألهم عما يعرفونه عن أخلاقه وخبراته. فإذا قبل المعلم عضوية هذا العامل قبولاً مبدئياً، فإنه يطلب عقد جمعية تدعى (المعلميه)، وهي اجتماع أو احتفال يدعى إليه أكبر عدد من أفراد هذه الطائفة، وفيه ينسب العامل الجديد إلى معلم محدد. وعلى الحرفي الجديد أن يقبل أبوة هذا المعلم، ويقسم بالله على الولاء والطاعة له مدى الحياة. وكذلك يؤكد ولاءه للطائفة وأفرادها ويشهد الله على ذلك، كما يشهد الحاضرون على هذا القسم ثم يقرأ الجميع الفاتحة لتوكيد القسم الذي يربط صاحبه بهذه الطائفة طوال حياته.

وعقب الاحتفال يعد العامل الجديد بمثابة ابن للمعلم ويدعى بذلك في حارته. ويرجع هذا إلى أن المعلم سوف يتبنى هذا العامل، ويعلمه من أسرار المهنة ما يؤهله لأن يصبح معلماً في مقبل أيامه. فالعامل مدين لمعلمه بأفكاره وطريقته وبأسلوبه في البناء والتصميم. وكان الحرفيون في كل فريق من فرق البناء العاملة في مدن الحجاز يتبعون المدرسة الخاصة لمعلمهم، فيتبعون طريقته الخاصة في البناء، وفي تصميم البيوت، وتوزيع مساحاتها، ويستخدمون ألفاظه وتعبيراته الخاصة حتى إنهم يعرفون من خلال صفات معلمهم. وقد كانت هناك أسماء وألفاظ دخلت إلى الحجاز من مصر والشام والهند، وبقية مدن العالم الإسلامي التي وقعت تحت حكم العثمانيين، وكان الجميع يستخدمون هذه الأسماء والتعبيرات التقنية، إلا أن كل معلم كانت له أسماؤه الخاصة.

لم يكن هؤلاء العمال (ويسمون أيضاً الشقاويه، نسبة للتعب والشقاء في العمل) يتقاضون في العادة راتباً شهرياً نظير بقائهم في فريق عمل معين، ولكن تدفع لهم أجور يومية عند المشاركة في

بناء أحد البيوت. وكان العمل حسب حاجة السوق، فإن لم يكن المعلم مرتبطاً بالعمل في مشروع، فإنه يسمح لعماله أن يعملوا مع فريق بناء آخر، أو أن يعملوا في مجال حرفة أخرى، كأن يعملوا مثلاً في صيد الأسماك، أو في استخراج الحجر البحري، أو المشّاط من قاع البحر أو تجهيزه للمشروعات المستقبلية، أو يبيعونه لمعلم بناء آخر ليستخدمه في إتمام مشروعاته. ومن تقاليد طائفة البنائين أيضاً أن لا يقبل أي معلم عمالاً مطرودين من فريق عمل آخر من دون الاستئذان من معلمهم الأصلي، فإن لم يأذن لهم فإنهم يظلون بلا عمل ولن يقبلهم أي فريق بناء آخر.

وحتى يتم العفو عنهم من قبل معلمهم، أو يأمر شيخ البنائين بالعفو عنهم، فإن عليهم أن يسعوا جاهدين لعقد صلح مع معلمهم أو رفع تظلم لشيخ المعلمين، وإلا فإن عليهم تغيير مهنتهم إلى الأبد. وكان التظلم يوجه إلى الجمعية التي تعقد بناء على طلب العامل المتظلم، أو يأمر شيخ الطائفة بعقدها بعد أن يرى الجدوى من ذلك. فإذا كان المعلم (رئيس الفريق) هو المتظلم من العمال، فإن العار واللوم ينالهم مباشرة، سواء من أقرانهم من طائفة البناء أو من أفراد حاراتهم، إذ إن أسوأ تهمة يمكن أن توجه إلى عمال ينتمون إلى طائفة معينة، هي إنكار الجميل وعدم الرغبة في العمل لدى المعلم الذي يدينون له بصنعتهم ولقمة عيشهم، فهم في هذه الحالة «خونة للعيش والملح».

وفي المقابل يظل المعلم مخلصاً لعماله، ويستشيرهم عند رغبته في ضم عامل جديد إلى فريقه. وكانت المعاملة العادلة لجميع العمال من صفات المعلم الناجح، خاصة في الأجور اليومية، أو في عدم تفضيله أحد العمال على الآخر في الترقية من دون وجه حق. وكان المعلم يعامل عماله ويقدرهم وكأنهم أبناؤه. ففي الأعياد والمناسبات الخاصة كان المعلم يجود على صبيانه أو عماله بأن يصحبهم إلى القبوه، وهي السوق المغطى، لشراء ملابس جديدة لهم، وكذلك الأرزاق اللازمة لبيوتهم. وإذا كان المعلم في عسرة مالية فإن العادة لا بد أن تتبع، فيشتري المعلم هذه الهدايا بالدَّين.

وفي حالة وفاة أحد العمال، فإن الطائفة التي ينتمي إليها تتولى الصرف على بيته وأسرته، عن طريق تبرعات تجمع من أفراد الطائفة، فضلاً عن مساعدات أصدقاء المتوفى وجيرانه. وكانت هذه المساعدات في الحجاز

القديم، تشبه نظام التكافل الاجتماعي. إلا أنه قديماً كان اختيارياً، بمعنى أن قانون الطائفة وعرفها لا ينص على ذلك، إلا أنها عادة حميدة لم تنقطع إلا في منتصف القرن العشرين، مع تلاشي سلطة الطائفة وقلة التبرعات، إذ حل محلها الضمان الاجتماعي المعمول به الآن.

وفي عام ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٠م، بدأت الطوائف تتحلل تدريجياً، وأخذت سلطات شيخ الطائفة ومسؤولياته تنحصر في كونه مستشاراً لقاضي المدينة فيما يتعلق بأمور البناء والمباني. وفي هذه الحالة كانت الدعاوى حول الخلافات أو التجاوزات التي تقع من جهة ضد أخرى ترفع إلى القاضي، الذي يستدعي شيخ طائفة البناء للبحث في المشكلة، فيذهب الأخير في زيارة إلى الموقع، وتُسمى هذه الزيارة بالكشفيه.

وفي عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، عُين أول مسؤول للبلدية في مدينة جدة، وظل شيخ معلمي البناء يعمل مساعداً له حتى سنة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٤م عندما استعيض عن شيخ المعلمين بمهندسين ومعماريين متخصصين للقيام بالكشفية. بعد ذلك تقلص دور معلمي البناء وشيخهم إلى مستشارين لهؤلاء المهندسين، فيما يتعلق بأساليب البناء والترميم التقليدية. وعلى كل حال فإن بعض هؤلاء المعلمين كان يجد الفرصة من وقت لآخر لبناء بيت تقليدي، أو ترميم بعض البيوت المتهالكة، بناءً على رغبة مالكيها، إلا أن مثل هذه الأعمال كانت محدودة، فلم يستطع كثير من المعلمين الاستمرار في المهنة وسيلة لكسب العيش. ثم بدأ بعض المعلمين، خاصة صغار السن، تعلم أساليب البناء الحديثة باستخدام المواد المتوافرة آنذاك، والانخراط من جديد في المهنة ولكن بأسلوب آخر، وتحت أعراف وتقاليد جديدة. وحتى يومنا هذا فإن بلدية جدة القديمة ما زالت تطلب خدمات هؤلاء الحرفيين التقليديين كمستشاري ترميم وصيانة للبيوت القديمة.

ضوابط العمل. في غياب التنظيم الرسمي، لم يجد الناس بديلاً عن إيجاد طريقة تنظم العلاقة بينهم وبين الحرفيين من جهة، وبين الحرفيين أنفسهم من جهة أخرى. وكانت النقابات أنجع السبل لتحقيق هذه الغاية، لذا اندرج الحرفيون تحت نقابات تنظم أمورهم وتحفظ حقوقهم. فنشأت لكل حرفة نقابة، إذ يختار الحرفيون شيخ النقابة ونقيبها، وهو بمثابة الأمين العام في المؤسسات الحديثة. ويغلب على العملية التوارث فيحافظ الحرفيون على تدريب أبنائهم ليحلوا

محلهم فيما بعد. ويتم عن طريق النقابة تقليد الأعمال الرسمية وتوزيعها ومراقبتها في عدم الخروج عن الحدود المعروفة والمألوفة في الحرفة، وحل النزاعات، خاصة بين أبناء الحرفة الواحدة. وبهذا شكلت النقابة الأسرة المهنية التي ينضوي تحتها الحرفيون، ويحافظون على تقاليدها وسمعتها كأنها الأسرة أو العائلة التي ينتمون إليها، ومن هنا نشأ التضامن والتعاضد والاحترام فيما بينهم.

وقد أخذت هذه النقابات في الانحسار، فضُم دور النقيب الذي كان المسؤول الاعتباري الأول عن الحرفة، ثم أصبح الرجل التنفيذي في النقابة، إلى الشيخ، وألغي دور النقيب، ثم ألغيت النقابات بحلول البلديات، وكان آخر ما بقي من هذا النظام هو الشيخ (شيخ الطائفة أو الحرفة) ثم زال أخيراً.

وكان للنقيب دور في الحجاز ارتبطت به بعض الأعمال. والناس يرجعون إلى النقيب في الأمور العادية، أما الأمور الكبيرة فيرجعون إلى الشيخ أو العمدة الذي قد يحيل بعض الأمور إلى النقيب الذي يعمل تحت رئاسته. وفيما يلي ترتيب المراكز في النقابة:

الشيخ: وهو الرئيس، ويتولى عقد مجلس مشيخة الحرفة لتخريج المتدربين ويمنحهم الشهادة برؤية أرباب الحرفة وتوصياتهم، وربما كانت الشهادة إعلاناً شفهياً بين الحرفيين. كما يتولى فض النزاعات وحل المشكلات بين أفراد النقابة وعملائهم، وهو المسؤول عن ترقية الحرفيين.

النقيب: ويمثل تقريباً الأمين العام في النقابات والمجالس والهيئات الحديثة، ويعين من قبل الشيخ وبموافقة الطائفة، وهو المحرك للنقابة ويشكل حلقة الوصل بينها وبين شيخها.

المعلم: وهو كل من يحصل على كفاءة في مهنته من خلال الخبرة ودرجة الإنجاز. ويمنح هذه الدرجة في حفل يحضره أعضاء النقابة وأقرانه من الصناع والحرفيين. فيُشْهر بلوغه هذه الدرجة ويمنح الإجازة من الشيخ بناء على توصيات المعلمين الذين مارس الحرفة تحت إشرافهم. وبذلك يمكنه الاستقلال عن معلمه، وتشكيل فريق عمل بقيادته وتحت إشرافه.

الأسطى: يلي المعلم في السلم الحرفي لتدربه ومقدرته على القيام ببعض الأعمال الفنية التي يعهد إليه معلمه بأدائها، ويظهر الأسطى في أعمال البناء والنجارة ونحوها.

الصبي: وهو الناشىء الذي يتدرب على الأعمال البسيطة، بدءاً من خدمة

المعلم والأسطى، حتى إذا أجاد بعض الأعمال رقي إليها. وقد يتطلب ذلك عشرين عاماً من الخبرة، حتى يُتقن الحرفة ويدرك أسرارها وتقاليدها.

وعندما يُرقى الحرفي إلى درجة معلم، يقيم شيخ الحرفة حفلاً يُدعى إليه أرباب المهنة، وتقدم فيه القهوة، ويتلى فيه القرآن، وتقدم التهاني للمعلم الجديد من الحضور، ويتعهد أمامهم بالالتزام بأصول الحرفة والصدق، وعدم المبالغة في الأجور، ومجانبة الغش في المواد أو الخامات أو العمل.

أشهر معلمي البناء في الحجاز.

اشتهرت في الحجاز مجموعة من معلمي البناء منهم صدقة كركشان الذي ولد سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٤م في مدينة جدة، وتوفي -رحمه الله- بها سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

ملامح وجهه واسم عائلته يعطيان الانطباع أنه من جنوب شرقي آسيا، فعائلة المعلم صدقة قد جاءت إلى الحجاز من مقاطعة كاراك أو جزيرة كاركتوا من إندونيسيا.

ويذكر المعلم صدقة أيضاً الأيام الشديدة الحرارة، التي قضاها تحت شمس الحجاز أثناء عمله حرفياً للبناء لدى والده، إذ كان ينادي والده بلقب المعلم أحمد تماماً كبقية العمال العاملين في موقع البناء.

عاش المعلم صدقة في محلة الهنداوية، وهي تمثل اليوم امتداد حارة البحر القديمة من حارات مدينة جدة. وقد عاش في البيت الذي بناه بنفسه باستخدام الخرسانة المسلحة ليثبت لأقرانه ولأبناء الأجيال الجديدة أن «الشاطر يستطيع أن يغزل ولو برجل حمار»، كما يقول المثل الشعبي الحجازي.

توفي المعلم صدقة كركشان، رحمة الله عليه، في شهر سبتمبر من عام ١٩٩١م إثر غيبوبة دامت عدة أسابيع في مدينة جدة، عن عمر يناهز السابعة والتسعين، وهو من أقدم أعضاء طائفة البناء التقليدية في الحجاز وأكبرهم سناً. ومع كبر سنه، رحمه الله، إلا أنه كان شديد الدقة في وصفه، سريع البديهة، متصل الحديث، قوي الذاكرة. وهو أحد المعلمين الذين قاموا بتصميم وبناء معظم البيوت الباقية حتى اليوم في مدينة جدة.

وتقدم نظرة المعلم صدقة الخاصة، وتفسيره وتحليله لحياته في الحجاز القديم، وتاريخ طائفة البناء وأعمالهم، معلومات قيمة للغاية عن طرق إنشاء البيوت الحجازية وتصاميمها في ظل العادات

والتقاليد التي سادت في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين.

إن الوصف الذي يقدمه، رحمه الله، لطريقة إنشاء البيت الحجازي في المدينة المنورة ومكة المكرمة حيث عمل وبنى، هو أيضاً بمثابة مقارنة بين أساليب البناء في كبرى مدن الحجاز.

وقد بنى المعلم صدقة بيتاً يُعد من أجمل بيوت جدة القديمة، ولا يزال قائماً حتى اليوم كتحفة فنية من تحف العمارة الحجازية التقليدية، وهو بيت الشريف مهنّا العبدلي، المعروف اليوم باسم بيت الشربتلي في منطقة جدة القديمة، في حارة الشام وهو في الحدود الشمالية للمدينة القديمة قبل إزالة أسوارها.

وكان بناء هذا البيت قد عُهد به أول الأمر لأحد كبار معلمي البناء في جدة، وهو المعلم أبو زيد، وهو معلم معروف. إلا أن خلافاً وقع بينه وبين الشريف مهنا العبدلي، لكثرة تدخل الشريف في عمل المعلم. وكان المعلم أبو زيد قد بدأ في وضع الأساسات عندما وقع الخلاف وتوقف عن العمل، فأوصى أحد المقربين من الشريف أن يكمل المعلم صدقة كركشان بناء البيت. فاتصل الشريف مهنا العبدلي بالمعلم

بيت الشربتلي

صدقة كركشان في اليوم التالي لرحيل المعلم الأول.

يقول المعلم صدقة «أراد الشريف أفضل العمال والمعلمين لبناء بيته، وأراد أيضاً أن يكون تصميمه وبناؤه مختلفين عن المألوف في الحجاز، خاصة مدينة جدة. وكان من الطبيعي أن يكون المعلم الشهير أبو زيد من المرشحين لهذا العمل نظراً لخبرته الطويلة، وكان يعمل مع المعلم أبو زيد أشهر نجاري مدينة الطائف، المعلم حسن طايفي. وقد اختلف الشريف مهنا مع المعلم أبو زيد لأن الشريف كان يتدخل في تفاصيل العمل، إلا أن كبرياء المعلم أبو زيد لم تسمح بتدخلات الشريف أو غيره، سواء في عمله أو في طريقته. سأل الشريف مهنا العبدلي المعلم حسن طايفي (يا حسن، أعطني اسم ثاني أفضل معلم في مدينة جدة، وإذا كان بنفس الجودة التي توصي بها سأعطيه سيارة جديدة وثمن وقودها لمدة عام وأنت كذلك). كنت صغيراً في هذا الوقت، وعندما رآني الشريف مهنا ظن أنني لن أستطيع القيام بالعمل ولكن كان يثق في المعلم حسن، والحمدلله أنني لم أخذلهما. ولكن بدلاً من السيارة طلبت ثمنها وحصلت عليه. وقد ازداد الطلب على أعمالي بعد هذا البيت. وقد تناقلت ملكية هذا البيت أكثر من عائلة في الحجاز، حتى اشتراه الشربتلي، وهو أحد تجار جدة الأغنياء في ذلك الوقت» (مقابلة شخصية: جدة ١٩٩٠).

وتولى المعلم صدقة بعد ذلك ترميم وإصلاح تحفة أخرى من تحف العمارة الحجازية التقليدية، وأشهر بيوت مدينة جدة على الإطلاق، وهو بيت الأفندي نصيف في حارة اليمن، وهو جزء من حارة البحر التي ولد وعاش فيها المعلم صدقة. وكان المعلم صدقة في ذلك الوقت يعمل لدى عائلة زهران وعائلة نصيف معلماً للبناء الخاص بمشروعاتهم السكنية. وهذا البيت هو الذي نزل فيه المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود (سلطان نجد آنذاك) في أول زيارة له لإقليم الحجاز سنة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م قبل توحيد المملكة مباشرة، وقضى الملك عبد العزيز عامين في هذا البيت قبل أن يُلقب بملك الحجاز.

وفي الخمسينيات من القرن الرابع عشر الهجري كان المعلم صدقة يمتلك أربع ورش لتجهيز الحجر البحري والمشّاط والمنقبي إلى قوالب مسبقة القطع. والحجر البحري حجر رمادي صلب يقطع من الشعب المرجانية من البحر الأحمر، وتسمى أنواعه الأخرى

بالمشاط لأنه يشبه المشط في تكوينه عند قطعه، ولشدة حدة أطرافه. وهناك أيضاً الحجر المنقبي، وكان يجلب أو يستخرج من بحيرة الأربعين التي كانت تعرف ببحر الطين أو بحيرة النقبة. وكل هذه الأنواع كان يغلب عليها التكوين الجيري. كما امتلك المعلم صدقة كذلك ورشتين لخلط النورة (مسحوق الجير)، وقد استخدم اسم النورة في الحجاز القديمة مرادفاً للمونة، وهي المواد التي تستخدم لتثبيت الحجارة بدلاً من الإسمنت في مباني العصر الحاضر. أما المونة الطبيعية فيقصد بها الطين اللزج الذي يُستخرج من بحر الطين، وله خاصية التماسك. أما النورة البلدية، وهي خليط من الطين والجير، وهناك النورة الأفرنجي فقد ظهرت في بداية القرن العشرين، وتعني الأسمنت.

وكانت النورة البلدية هي الأكثر استخداماً وشيوعاً في الحجاز القديم، وهي تعتمد في تكوينها على خلط نسب معينة من الطين اللزج ومسحوق الحجر الجيري ومجروشه وتطبخ لعدد من الأيام في قوالب، ثم تسحق مرة أخرى أو تقطّع إلى قطع ذات أحجام مختلفة. وكانت تستخدم مواد بناء وحجارة خاصة في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وحاز رحمه الله أيضاً قطعة أرض شاسعة في جنوب مدينة جدة، ودفع مبلغ ٧٠٠٠ ريال لحيازة ٥٠٠,٠٠٠م٢ في ذلك الوقت. هذه القطعة فيها اليوم المنطقة الصناعية في مدينة جدة، وكانت تعرف إلى وقت قريب حتى في مخططات البلدية القديمة باسم برحة الكركشان.

كان رحمه الله قمة في الذكاء وسرعة البديهة، قوي الملاحظة، وعلى قدر واف من النشاط والمعرفة بتقنيّة البناء الحديثة وقوانين البناء والضوابط القانونية للبلديات.

ومن شيوخ معلمي طائفة البناء المشهورين أحمد حمزة الريفي الذي يُعد آخر شيوخ معلمي طائفة البناء في المدينة المنورة (ولد سنة ١٩٣٠م) وعين شيخاً للطائفة سنة ١٩٦٣م. وأشرف على بناء عشرات البيوت في المدينة المنورة وغيرها من مدن الحجاز. والمعلم الريفي سليل عائلة من محترفي البناء، فوالده وجده رحمهما الله شاركا في بناء أحد أكبر وأشهر معالم المدينة المنورة، وهو محطة العنبرية، حيث كان يتوقف قطار سكة حديد الحجاز. كانت معظم هذه البيوت التي بناها أجداده في حالة ممتازة، على الرغم من أنها قد بنيت قبل حوالي ٣٠٠ سنة.

قائمة مصطلحات تقويم المعمار التقليدي بالحجاز

معايير التصميم	المعنى الحرفي	المعنى	الاستعمال
شغل أبجر	متعارض/ منتفخ	غير متوازن/ مشوش	تصميم
شغل أصيل	أصلي/ أصيل	مبدع/ مبتكر	تصميم
شغل بدرمه/ مبعجه	مهجن/ مرقط	مختلف/ انتقائي	تصميم
شغل برح/ مبحبح/ مريح	مريح/ واسع/ فسيح	غير مقيد (بالميزانية)	تصميم
شغل غريب/ دخيل	غريب/ متسلل	غير مألوف/ دخيل	تصميم
شغل بصمجية	نسخة/ مقلد	معاد/ منسوخ	تصميم/ أعمال خشب
شغل مخلوط	مخلوط	مرتبك	تصميم
شغل مألوف/ معتاد	عام/ شائع/ مألوف	محلي/ بلدي	تصميم
شغل مبعثر	منتشر/ منثور	منفصل/ غير منسجم	تصميم
شغل رستكه/ رستك	مستكمل/ مرضي	خيالي/ حريص	تصميم
شغل رايق/ على الرايق	صافي العقل	منسق/ عميق	تصميم
شغل بارز	بارز/ ناتئ	مميز	عام
شغل بائس/ بطال حزين/ بائس	حزين/ تعيس	رديء/ عديم القيمة	عام
شغل بطران	بدون تفكير/ بلا عناية	مبذر/ مبدد/ مزوق	عام
شغل بذمة	باستقامة وأمانة	شديد التدقيق/ مثابر	عام
شغل درة أولى	درجة أولى	بلا أخطاء/ قوي	عام
شغل أصولي	طبقاً للكتاب/ تبعاً للقواعد	أصيل/ تبعا للقاعدة التراثية المقبولة ثقافيا	عام
شغل أوادم/ زي الناس	عمل الناس	عام/ عرفي	عام
شغل بديع	رائع/ مرغوب	مجدد	عام
شغل محكور/ حكر	مصنوع جيدا	متكامل/ مصفى	عام
شغل متعوب عليه	متكلف/ متعب	متعب/ كاد	عام
شغل موصوف	موصوف/ مزكى	مميز/ بارز	عام
شغل مو بطال/ لابأس به	ليس رديئا/ متوسط/ عادي	تافه/ محتمل	عام

شغل مؤدي	مضر/ مؤذي	ذو عيوب	عام
شغل منضم	مرتب/ منظم	متكامل/ منظم/ مستو	عام
شغل نموذجي	مثالي/ نموذجي	نموذج مثالي	عام
شغل تعبان	مريض	ضعيف/ غير كافٍ	عام
شغل بذخ	مكلف	غال/ مرفوع	إنشائي
شغل محبوك	متماسك جيداً	محمي	إنشائي
شغل محسوب/ مرسوم بالمسطرة	محسوب/ مرسوم بالمسطرة	دقيق/ مضبوط	إنشائي
شغل مخبوص	مخلط/ ممزوج	متنوع/ غير مميز	إنشائي
شغل مخدوم	مخدوم	مستو/ ناضر	إنشائي
شغل مرصود	ملاحظ/ محسوب	متوازن	إنشائي
شغل متين	صلب/ قوي	ثابت/ مصمت	إنشائي
شغل مخستك	مريض/ ليس جيدا	غير مرتب/ نافر	إنشائي
شغل مرتجل، مرمق	مرتجل/ ملصوق	مهمل/ غير مطور/ غير حساس	إنشائي
شغل راسي/ راكز	ثابت/ راسي	ثابت/ صلب	إنشائي
شغل موزون	موزون/ مستو	متوازن/ ثابت/ مستقيم	أعمال الحجر/ الآجر
شغل نضيف	نظيف	مستقيم/ بلا عيوب/ محتمل	أعمال الحجر/ الآجر
شغل ترميق/ تلصقه	عمل للبيع/ عمل ملصق	تجاري/ رديء الجودة	أعمال الحجر/ الآجر
شغل تأني	حريص	حريص	أعمال الحجر/ الآجر وأشغال الخشب